سلسلة ظرفاء العرب

نَوَادِر قَرَاقُوش وَأَبِي العَيْنَاء وَطَرَائِفِهِمَا





إعداد
إميلين نسيب

كتاب القارئ

نَوَادِر قَرَاقُوش وَأَبي العَيْناء

وطرائفهما

سلسلة ظرفاء العرب

- ٣ -

نَوادِرِ قَراقُوش وَأُبي العَيْناء وَطرائِفهما

إعداد

إمِلين نَسِيب

كتاب القارئ

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس، بناية متكو، الطابق الثاني

هاتف: ٣٠٦٦٦٦ - ٧٠١١٥٥ - ٧٠١٦٥٦ (٠١)

فاكس: ٧٠١٦٥٧ (٠١)

ص.ب ١٠٨٥ بيروت - لبنان

www.malayin.com



المقدمة

الطرفة في الأدب ، هي «نادرة ، مُلحة ، نكتة ، حكاية قصيرة تبعث عادةً على الانشراح والضحك لما تتضمَّنه من فُكاهة ، أو غرابة خارجة عن الكلام المألوف» [1] .

والنادرة استعملها العرب بمعنى الخبر الطريف والملحة ، والأقصوصة الفكاهية . وهي ذات خصائص ، فهي قصيرة ، وذات أسلوب مفهوم فصيح ، تضمّ خبراً أو طرفة . وهي نوع من آداب التسلية التي أقدم الأدباء على جمعها بشكل عام ضمن كتب عامة أو خاصة ، كما أقدم بعضهم على جمع النوادر ذات الصفة المحدَّدة ، مثل «نوادر القضاة» ، و«نوادر الأذكياء» ، و«نوادر المغفَّلين» و «نوادر البخلاء» ، و«نوادر جحا» [2] . وقد عني العرب قديماً بهذا النوع من الأدب .

---

(١) - جبور عبد النور : المعجم الأدبي . دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٧٩ ، ص ١٦٥ .

(٢) - محمد التونجي : المعجم المفصل في الأدب . دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٢ ، ص ٨٤٦ .

ومن الكتب المصنّفة فيه نذكر :

- أخبار الحمقى والمغفّلين للإمام أبي الفرج ابن الجوزي .
- اللطائف والظرائف للثعالبي .
- أخبار الظراف والمتماجنين للإمام أبي الفرج ابن الجوزي .
- عقلاء المجانين للحسن بن محمد النيسابوري .
- حدائق الأزاهر لابن عاصم (محمد بن محمد) .
- فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء لابن عرب شاه .
- المستطرف من كلّ فنّ مستظرف للإبشيهي .
- أنس الجليس للعابدي (محمود سليمان) .
- المختار من نوادر الأخبار لأبي عبد الله شمس الدين المقّري .

وأمّا في العصر الحديث فقد صُنّفت فيها المئات بل الألوف من الكتب .

أمّا اختيارنا «ظرفاء العرب» موضوعاً لسلسلتنا هذه ، فنظراً لما في نوادر هؤلاء من متعة ، وتسلية ، وثقافة ، وحكمة ، في الوقت نفسه . فهي ، من ناحية ، تمتّعنا بما فيها من طرائف مضحكة ، ونوادر مسلّية ، وأخبار نادرة . وهي ، من ناحية أخرى ، تثقّفنا بما فيها من أخبار عن شعرائنا الأقدمين ، وكتّابنا ، وأمراء الطرفة والبيان . وهي ، من ناحية ثالثة ، تشدّنا إلى تراثنا العربيّ ، وتقوّي لغتنا ، وتمدّنا بمخزون لغوي وأدبيّ وتاريخيّ لا بأس به .

وتضمّ هذه السلسلة ثلاثة أجزاء على النحو التالي :

١ - طرائف جحا وأشعب ونوادرهما .

٢ - طرائف أبي نواس وأبي دلامة ونوادرهما .
٣ - طرائف قراقوش وأبي العيناء ونوادرهما .

وقد قَسَّمنا كلّ جزء منها إلى قسمين ، فلكلّ علم من أعلام الظرف والفكاهة قسمٌ خاصّ ، ثمّ قسمنا كلّ قسم إلى بابين ، وجعلنا في الأوّل منهما ترجمة للعَلَم ، وفي القسم الثاني نوادره .

وقد حَرَصْنا على استبعاد كلّ ما يخدش الحياء ، أو يُسيء إلى الجماعات ، أو إلى طائفة ، أو غير ذلك ، فهدفنا الإمتاع ، والتسلية ، والتثقيف ليس إلاّ . كذلك حرصنا على أن نكون أمناء في نَقْل النوادر والطرائف من مصادرها الأساسيَّة .

وبعد ، ليست غايتنا من سلسلتنا هذه سوى خدمة القارئ والتراث في الوقت نفسه ، فإنْ وُفِّقنا فالخير أردنا ، وإلاّ فحسبنا أننا حاولنا ، والله وليّ التوفيق .

المؤلفة

القسم الأول

قراقوش وطرائفه ونوادره

الباب الأول

قراقوش

قراقوش أتلف الأمّة، لا يقتدي بعالم، ولا يعرف المظلوم من الظالم، الشكيّة عنده لمن سبق، ولا يهتدي لمن صدق، ولا يقدر أحد من عظم منزلته على أن يردّ كلمته، ويشتاط اشتياط الشيطان، ويحكم حكماً ما أنزل الله به من سلطان.

ابن مماتي

ترجمته

١ - تمهيد

في التاريخ العربيّ شخصيّتان معروفتان باسم «قراقوش» ، أولاهما : شرف الدين قراقوش المظفري التقي الغزي الأرمني الأصل ، وثانيهما بهاء الدين قراقوش بن عبد الله الأسدي الروفي .

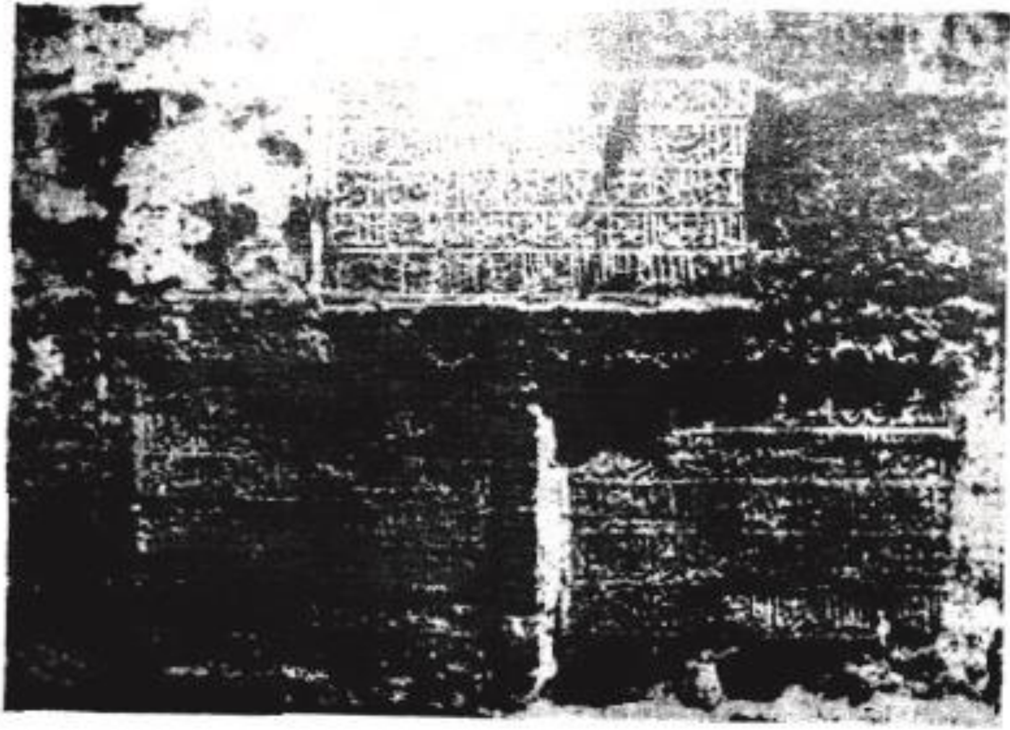
وهاتان الشخصيّتان متشابهتان أشدّ التشابه ، فكلاهما عاش في زمن صلاح الدّين الأيوبي ، وكان من قادة جيشه ،وكلاهما عسكريّ صارم ، وفظّ في تعامله مع الآخرين .

وبالرغم من هذا التشابه الشّديد ، فإنّ الباحثين مجمعون على أنّ الشخصيّة التي تُنسَب إليها النوادر هي بهاء الدين قراقوش بن عبد الله ، لا شرف الدين قراقوش المظفريّ . فمن هو بهاء الدين قراقوش هذا؟

* * *

لعلّ أوفى ترجمة لقراقوش ، كتبها ابن خلّكان في كتابه :

«وفيات الأعيان» ، وقد جاء فيها : «أبو سعيد قراقوش بن عبد الله الأسديّ ، الملقّب بهاء الدين ؛ كان خادم صلاح الدّين ، وقيل : خادم أسد الدين شيركوه عمّ السلطان صلاح الدين ، فأعتقه . ولـمّا استقلّ صلاح الدين بالديار المصريّة ، جعله زمام القصر ، ثمّ ناب عنه مدّة بالديار المصريّة ، وفوّض أمورها إليه واعتمد في تدبير أحوالها عليه ، وكان رجلاً مسعوداً وصاحب همّة عالية ، وهو الذي بنى السور المحيط بالقاهرة ومصر وما بينهما ، وبنى قلعة الجبل ، وبنى القناطر التي بالجيزة على طريق الأهرام ، وهي آثار دالّة على علوّ الهمّة ، وعَمَّرَ بالـمَقْس رباطاً ، وعلى باب الفتوح بظاهر القاهرة خان سبيل . وله وقف كثير لا يعرف مَصْرِفه ، وكان حسن المقاصد جميل النيّة . ولـمّا أخذ صلاح الدّين مدينة عكا من الفرنج سلّمها إليه ، ثمّ لما عادوا واستولَوْا عليها حَصَل أسيراً في أيديهم ، ويقال : إنّه افتكّ نفسه بعشرة آلاف دينار . وذكر شيخنا القاضي بهاء الدين بن شداد في «سيرة صلاح الدين» أنه انفكّ من الأسر في يوم الثلاثاء حادي عشر شوّال سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ، ومثل في الخدمة الشريفة السلطانية ، ففرح به فرحاً شديداً ، وكان له حقوق كثيرة على السلطان وعلى الإسلام والمسلمين ، واستأذن في المسير إلى دمشق ليحصّل مال القطيعة ، فأذن له في ذلك ، وكان على ما ذكر ثلاثين ألفاً . والناس ينسبون إليه أحكاماً عجيبة في ولايته ، حتى إنّ الأسعد بن مماتي ، له جزء لطيف سمّاه «الفاشوش في



من منجزات قراقوش المعمارية

أحكام قراقوش» وفيه أشياء يبعد وقوع مثلها منه ، والظاهر أنها موضوعة ، فإنّ صلاح الدين كان معتمداً في أحوال المملكة عليه ، ولولا وثوقه بمعرفته وكفايته ما فَوَّضَها إليه . وكانت وفاته في مستهلّ رجب سنة سبع وتسعين وخمسمائة بالقاهرة ، ودفن في تربته المعروفة به بسفح المقطّم بقرب البئر والحوض اللّذين أنشأهما على شفير الخندق ، رحمه الله تعالى .

وقراقوش : بفتح القاف والراء وبعد الألف قاف ثانية ثم واو وبعدها شين معجمة ، وهو لفظ تركيّ تفسيره بالعربيّ العُقاب ، الطائر المعروف ، وبه سُمِّي الإنسان ، والله أعلم»(١) .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان . ج ٤ ، ص ٩١-٩٢ .

أمّا خير الدين الزركلي ، فقد ترجم له في كتابه «الأعلام» على النحو التالي :

«قراقوش بن عبد الله الأسديّ ، أبو سعيد ، بهاء الدين (٠٠٠ - ٥٩٧ هـ/ ٠٠٠ - ١٢٠١ م) . أمير ، نشأ في خدمة السلطان صلاح الدين الأيوبيّ . وناب عنه في الديار المصريّة . كان همّاماً مولعاً بالعمران . وهو الذي بنى السور المحيط بالقاهرة ، وبنى قلعة الجبل ، وبنى القناطر التي بالجيزة على طريق الأهرام . ولـمّا أخذ صلاح الدين مدينة «عكّة» من الفرنج ولاّه عليها ، ثمّ لـمّا عادوا واستولوا عليها أسروه ، فافتكّه السلطان صلاح الدّين بعشرة آلاف دينار ، وفرح به فرحاً عظيماً . وتوفّي في القاهرة . وتنسب إليه أحكام عجيبة في ولايته ، قال ابن خلكان : الظاهر أنّها موضوعة ، فإنّ صلاح الدين كان يعتمد في أحوال المملكة عليه ، ولولا وثوقه بمعرفته وكفايته ما فوّضها إليه . و«قره قوش» كلمة تركيّة معناها «العقاب» الطائر المعروف»(١) .

٢ - أصل التسمية

يقول ابن خلكان في كتابه «وفيات الأعيان» إنّ «قراقوش» «لفظ تركيّ تفسيره بالعربي العُقاب ، الطائر المعروف ، وبه سُمّي الإنسان ، والله أعلم»(٢) .

---

(١) الزركلي : الأعلام ، ٥ ، ص١٩٢ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ٩٢ .

وقيل : «قراقوش» لفظ تركيّ مركّب من كلمتين :

١ - «قره» بمعنى أسود .

٢ - «قوش» بمعنى طائر جارح ، أو نسر .

ولعلّ سبب تلقيبه بهذا اللّقب كونه جنديًّا ينقضّ على أعدائه كما ينقضّ النسر على فريسته ، أو لزيّه الأسود ، أو لقوّته ، أو لأمرٍ آخر .

٣ - شهرته

أمّا شهرته ، فتعود إلى النوادر والطرائف التي نُسبت إليه ، وهي مجموعة في كتاب «الفاشوش في أحكام قراقوش» الذي سنفصّل القول فيه بعد قليل .

وقد كثُر الذين أفردوا له الكتب . أو خصّوه بفصول بكتبهم ، أو بمقالات ، أو بنحو ذلك .

وفيما يلي قائمة ببعض هذه الكتب والمقالات :

أوّلاً : الكتب العربيّة

- الفاشوش في أحكام قراقوش ، وسيأتي الحديث عنه مفصّلاً .

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . ابن تغري بردي . دار الكتب المصريّة . ١٣٤٨هـ - ١٣٧٥هـ . ج ٦ ، ص ١٧٦ .

- وفيات الأعيان . ابن خلكان (أحمد بن محمد) . دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لا ط ، لا ت .

- كتاب الروضتين في أخبار الدولتين . أبو شامة (عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي الدمشقي) ، القاهرة ١٩٥٦ - ١٩٦٢ ، ص ٥٠٨ - ٥٤٨ .

- ذيل الروضتين . أبو شامة (عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي الدمشقي) ، مصر ، ١٣٦٦ هـ ، ص ١٩ .

- الإفادة والاعتبار . عبد اللطيف البغدادي . القاهرة ، ١٢٨٦ هـ ، ص ٢٣ .

- الفاشوش في حكم قراقوش لابن مماتي . دار أخبار اليوم ، القاهرة ، ص ٣ - ٦ ، وص ٣٠ - ٥٦ .

- سيكولوجيّة الضحك . أحمد عطيّة الله . دار إحياء الكتب العربيّة . القاهرة ، ١٩٤٧ م ، ص ٢٦٠ - ٢٦٤ .

- أدبنا الضاحك . عبد الغني العطري . دار النهار للنشر ، بيروت ، ١٩٧٠ ، ص ٢٣٨ - ٢٤٦ .

- قراقوش ونوادره . الدكتور فاروق سعد . دار الآفاق الجديدة . بيروت ، ١٩٩٠ م .

- نوادر قراقوش . كريم عاصي . دار الفكر اللبناني ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٠ م .

- الأعلام : خير الدين الزركلي . دار العلم للملايين ، ط ٦ ،

١٩٨٤م، ج ٥، ص ١٩٣ .

ثانياً : المقالات

- «الفاشوش في حكم قراقوش» . كامل زهيري . مجلة الهلال ، القاهرة ، عدد ٨ ، أغسطس (آب) ، ١٩٦٦م ، ص ٩٨ - ١٠٥ .

- «قراقوش بين التاريخ والأسطورة» . مجلة الهلال ، العدد ١١ ، أكتوبر (تشرين الأول) ، ١٩٥٧م ، ص ٢٦ - ٣٠ .

- «قراقوش والفكاهة في حياة المصريّين» . مجلّة تاريخ العرب والعالم . بيروت ، العدد ٢ ، حزيران سنة ١٩٥٦ ، ص ٥٩ - ٦٣ .

- «الفكاهة في النقد السياسي والاجتماعي» . سهير القلماوي . مجلة الهلال ، القاهرة ، العدد ٨ ، أغسطس (آب) ، سنة ١٩٦٦ ، ص ٦٦ - ٧٣ .

ثالثاً : الكتب الأجنبيَّة

- Casanova: Karâkoûch, sa légende et son histoire. Communication faite à l'Institut Egyptien. Le Caire, 1892.

- Casanova: Karâkoûch. Paris, 1897.

- A. S. Ehrenkrenty: Saladin. Albany, 1972.

- H. Derenbourg: Ousâma bin Mounquiz. Paris, 1880.

- Encyclopédie de l'Islam. Paris, 1967. v. IV.

٤ - نسبة كتاب الفاشوش في أحكام قراقوش

هذا الكتاب الذي يتضمَّن نوادر قراقوش ، هو أوّل كتاب وصل إلينا يحمل بين دفّتيه هذه النوادر ، ولذلك هو المسؤول عن صحّة هذه النوادر ، أو عدم صحّتها . وهذا الكتاب يُنسَب إلى مؤلّفين : ١ - ابن مماتي . ٢ - والسيوطي .

أمّا ابن مماتي ، فهو كما جاء في الأعلام لخير الدين الزركلي :

أسعد (أبو المكارم) ابن مهذّب (الملقب بالخطير أبي سعيد) ابن مينا بن زكريا بن مماتي (٥٤٤ هـ/ ١١٤٩ م - ٦٠٦ هـ/ ١٢٠٩ م) . وزير أديب . كان ناظر الدواوين في الديار المصريَّة . مولده بمصر ، ووفاته بحلب . وكان نصرانيًّا ، فأسلم هو وجماعته في ابتداء الدولة الصلاحيَّة . قال القفطي : من أقباط مصر في عصرنا ، وكان جدّه جوهريًّا ، يصبغ البلّور صبغة الياقوت ، فلا يعرفه إلاّ الخبير بالجواهر . له «قوانين الدواوين» ، و«نظم سيرة السلطان صلاح الدين» ، و«نظم كليلة ودمنة» ، و«ديوان شعر» ، و«الفاشوش في أحكام قراقوش» ، وهو يُنسَب إلى السيوطيّ خطأً ، و«لطائف الذخيرة وطرائف الجزيرة» استخلصه من ذخيرة ابن بسّام في خزانة ولي الدين باستنبول ، الرقم ٢٦٣٦[1] .

(١) الزركلي : الأعلام ، ج ١ ، ص ٣٠٢ .

وفي كتابه هذا ينسب النوادر إلى قراقوش مصوِّراً إيّاه أحمق مغفلاً ظالماً . أمّا لماذا وضع كتابه هذا؟ فيقول الدكتور فاروق سعد :

«قد تكون ثمة منافسة سياسية بين ابن مماتي وقراقوش ، ذلك أنه من الثابت تاريخيًّا أن ابن مماتي كان في طليعة من عارضوا استمرار وصاية قراقوش على المنصور بحجة كبر سنه . وهذا مما يحمل على الظن بأن ابن مماتي وضع كتاب «الفاشوش في أحكام قراقوش» لغاية إعلامية تدعيماً لموقفه المعارض ، بحيث يظهر شخصية قراقوش مجردة من الأهلية والكفاءة المفترض توفرهما في الوصي ، وذلك بأن تبدو هذه الشخصية حمقاء مغفلة طباعاً وسلوكاً على نحو مبالغ فيه . ولا تفسير لهذه المبالغة التي وصلت إلى حد التشنيع في وصف أطباع قراقوش وسلوكه إلاّ أنّ ابن مماتي يطوي في نفسه حقداً دفيناً على قراقوش مردّه غالباً إلى الحسد من ماضي قراقوش وشهرته ومكانته . ثم جاءت المنافسة السياسية لتحيل الحسد إلى نقمة وكره إلى حد دفع ابن مماتي إلى وضع كتابه عنه وإظهاره بتلك الصورة المضحكة»[1] .

أمّا المؤلّف الثاني الذي نُسب إليه كتاب «الفاشوش في أحكام قراقوش» ، فهو السيوطي ، والسيوطي ، كما جاء في «الأعلام» :

---

(١) فاروق سعد : قراقوش ونوادره ، ص ٣٠ .

عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيري السيوطي (٨٤٩ هـ/ ١٤٤٥ م - ٩١١ هـ/ ١٥٠٥ م) جلال الدين : إمام حافظ مؤرّخ أديب . له نحو ٦٠٠ مصنّف ، منها الكتاب الكبير ، والرسالة الصغيرة . نشأ في القاهرة يتيماً (مات والده وعمره خمس سنوات) ولمّا بلغ أربعين سنة اعتزل الناس ، وخلا بنفسه في روضة المقياس ، على النيل ، منزوياً عن أصحابه جميعاً . كأنّه لا يعرف أحداً منهم ، فألّف أكثر كتبه . وكان الأغنياء والأمراء يزورونه ويعرضون عليه الأموال والهدايا فيردّها . وطلبه السلطان مراراً ، فلم يحضر إليه ، وأرسل إليه هدايا فردّها . وبقي على ذلك إلى أن توفّي . وقرأت في كتاب «المنح البادية» أنّه كان يلقّب بابن الكتب ، لأنّ أباه طلب من أمّه أن تأتيه بكتاب ، ففاجأها المخاض ، فولدته وهي بين الكتب ! من كتبه «الإتقان في علوم القرآن» و«إتمام الدراية لقراء النقاية» كلاهما له ، في علوم مختلفة ، و«الأحاديث المنيفة» و«الأرج في الفرج» و«الاذدكار في ما عقده الشعراء من الآثار» و«إسعاف المبطأ في رجال الموطأ» و«الأشباه والنظائر» في العربيّة ، و«الأشباه والنظائر» في فروع الشافعيّة ، و«الاقتراح في أصول النحو» ، و«الإكليل في استنباط التنزيل» و«الألفاظ المعربة» و«الألفيّة في مصطلح الحديث» و«الألفيّة في النحو» واسمها «الفريدة» وله شرح عليها ، و«إنباه الأذكياء لحياة الأنبياء» رسالة ، و«بديعيّة وشرحها» ، و«بغية الوعاة في طبقات اللغويّين

والنحاة» و«التاج في إعراب مشكل المنهاج» و«تاريخ أسيوط» وكان أبوه من سكّانها ، و«تاريخ الخلفاء» و«التحبير لعلم التفسير» و«تحفة المجالس ونزهة المجالس» و«تحفة الناسك» و«تدريب الراوي» في شرح تقريب النواوي ، و«ترجمان القرآن» و«تفسير الجلالين» و«تنوير الحوالك في شرح موطأ الإمام مالك» و«الجامع الصغير» في الحديث ، و«جمع الجوامع» ويعرف بالجامع الكبير ، ستّة أجزاء ، كتب سنة ٩٧٣ هـ في خزانة القرويين وفي الظاهرية ، و«الحاوي للفتاوي» و«حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة» و«الخصائص والمعجزات النبويّة» و«درّ السحابة ، في من دخل مصر من الصحابة» و«الدر المنثور في التفسير بالمأثور» ستة أجزاء و«الدرّ النثير في تلخيص نهاية ابن الأثير» و«الدراري في أبناء السراري» و«الدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة» و«الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج» و«ديوان الحيوان» اختصره من حياة الحيوان للدَّميري ، وقد ترجم إلى اللاتينيّة ، و«رشف الزلال» ويعرف بمقامة النساء ، و«زهر الربى» في شرح سنن النسائيّ ، و«زيادات الجامع الصغير» مرتَّبة على الحروف ، و«السبل الجليّة في الآباء العليّة» و«شرح شواهد المغني» سمّاه «فتح القريب» و«الشماريخ في علم التاريخ» رسالة ، و«صون المنطق والكلام ، عن فنّ المنطق والكلام» و«طبقات الحفّاظ» و«طبقات المفسّرين» و«عقود الجمان في المعاني والبيان» أرجوزة ، و«عقود الزبرجد على مسند

الإمام أحمد» و«قطف الثمر في موافقات عمر» و«كوكب الروضة» في ذكر جزيرة الروضة . . . و«مقامات» ٢٤ رسالة في مباحث مختلفة ، بخزانة الرباط (د ٢٩٦) و«اللآلي المصنوعة في الأحاديث الموضوعة» و«لبّ اللباب في تحرير الأنساب» و«لباب النقول في أسباب النزول» و«ما رواه الأساطين في عدم المجيء إلى السلاطين» و«متشابه القرآن» و«مجموعان» مخطوطان ، يشتملان على ٤٣ رسالة ، ذكر أسماءها حبيب الزيات في «خزائن الكتب» ، و«المحاضرات والمحاورات» و«المذهّب في ما وقع في القرآن من المعرّب» و«المزهر» في اللغة ، و«مسالك الحنفا في والدي المصطفى» و«المستطرف من أخبار الجواري» و«مشتهى العقول في منتهى النقول» و«مصباح الزجاجة» في شرح سنن ابن ماجه ، و«مفحمات الأقران في مبهمات القرآن» و«مقامات» في الأدب ، و«المقامة السندسيَّة في النسبة المصطفويّة» و«مناقب أبي حنيفة» و«مناقب مالك» و«مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا» ، و«المنجم في المعجم» ترجم به أشياخه ، و«نزهة الجلساء في أشعار النساء» في الظاهريَّة ، و«النفحة المسكيَّة والتحفة المكيَّة» في عدّة علوم ، و«نواهد الأبكار» حاشية على البيضاوي ، و«همع الهوامع» في النحو و«الوسائل إلى معرفة الأوائل»[1]. وغير ذلك .

---

(١) الزركلي : الأعلام ، ج ٢ ، ص ٣٠١ - ٣٠٢ .

أمّا لماذا كتب السيوطي كتابه هذا؟ فيجيب السيوطيّ نفسه على هذا السؤال، فيقول: «سئلتُ في درسي بالجامع الطولونيّ في أواخر المحرَّم سنة تسع وتسعين وثمانمائة عن قراقوش، وهل له أصل في التاريخ أو لا، وهل ما يُعزَى إليه من الحكايات المضحكة لها أصل أم لا؟ فجمعت فيه هذه الأوراق في تلك الليلة، وحرّرتها في ساعات قليلة، وكذا أصل وجوده...».

والآن لا بدّ من التساؤل: لمن كتاب «الفاشوش في أحكام قراقوش» أهو لابن مماتي أم للسيوطيّ؟

يذهب معظم الباحثين إلى أنّ الكتاب لابن مماتي[1]، والسيوطي نفسه لا يدّعي أنّه مؤلّفه، بل صرّح في مقدّمة كتابه، كما جاء منذ قليل أنّه أورد نوادر قراقوش جواباً عن أحد أسئلة طلابه.

٥ - تسمية الكتاب

الفَشُّ، في اللغة، هو الأحمق[2]، والفاشوش هو الضعيف الرأي والعزم[3]، ولعلّ المقصود بهذه الكلمة هنا: الحُمْق، أو

(١) راجع: الزركلي: الأعلام، ج ٥، ص ١٩٣؛ وابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٤، ص ١٩٢.

(٢) لسان العرب، ج ٦، ص ٣٣١، (فشش).

(٣) الرائد، مادة فاشوش.

الغفلة ، أو ما إليهما . أمّا كلمة «قراقوش» ، فقد سبق القول إنّها لفظ تركيّ مركَّب من كلمتين : ١ - «قره» بمعنى أسود . ٢ - «قوش» بمعنى طائر جارح ، أو نسر ، وقيل : قراقوش لفظ تركي بمعنى العقاب[1] .

٦ - مخطوطات الكتاب

١ - مخطوطة المكتبة الوطنيّة بباريس .

٢ - مخطوطة المتحف البريطانيّ .

٣ - مخطوطة في مكتبة بول سباط .

٤ - مخطوطة بعنوان «رسالة فيما ورد في قراقوش» في مكتبة قولة .

٥ - مخطوطتان في دار الكتب القوميّة في القاهرة .

وفيما يلي توطئة ابن مماّتي لهذا الكتاب ، ثمّ توطئة السيوطيّ .

٧ - توطئة ابن مماّتي

«إنني لما رأيت عقل بهاء الدين قراقوش مخرمة فاشوش ، وقد أتلف الأمة ، والله يكشف عنهم كل غمّة ، لا يقتدي بعالم ، ولا يعرف المظلوم من الظالم ، الشكيّة عنده لمن سبق ، ولا يهتدي لمن صدق ، ولا يقدر أحد من عظم منزلته على أن يرد كلمته ،

(١) وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ٩٢ .

ويشتاط اشتياط الشيطان ، ويحكم حكماً ما أنزل الله به من سلطان ، صنّفت هذا الكتاب لصلاح الدين ، عسى أن يريح منه المسلمين» .

٨ - توطئة السيوطي

«وبعد ، فقد سُئلت في درسي بالجامع الطولوني في أواخر المحرَّم سنة تسع وتسعين وثمانمائة عن قراقوش وهل له أصل في التاريخ أو لا . وهل ما يُعزى إليه من الحكايات المضحكة لها أصل أم لا . فجمعت فيه هذه الأوراق في تلك الليلة وحرّرتها في ساعات قليلة ، وكذا أصل وجوده . .

نقل الناصر محمد بن تغري بردي في كتاب «النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة» عند ذكر السلطان صلاح الدين ابن أيوب ما قرأته ، وكان وزيره الصاحب بهاء الدين قراقوش صاحب الحارة المعروفة بسويقة الصاحب القديمة في الجامع الحكي ، وكان رجلاً صالحاً غلب عليه الانقياد إلى الخير . وكان السلطان يعلم منه عدم الفطنة والنباهة . وكان إذا سافر السلطان من مصر إلى الشام في زمان الربيع كما هي عادته في كل سنة يفوِّض إليه أمرها مع مشاركة بعض أولاده لعدم استيثاقه منه بالانفراد في ذلك . لكنه في عام واحد وستين وخمسمائة حكمها منفرداً نحو شهر من غير مشاركة بمقتضى وفاة ولي العهد المشارك له ، ووضعت عليه الحكايات المضحكة» .

قراقوش
بين التاريخ والأسطورة

وفيما يلي مقال محمد عبد الله عنان «قراقوش بين التاريخ والأسطورة» الذي نشره في مجلة الهلال ، الجزء ١٠ ، مجلد ٦٥ ، أكتوبر (تشرين الأول) ، ١٩٥٧ .

«كثيراً ما تُغيِّر حقائق التاريخ أو تشوَّه ، ويغمرها معترك من الخرافة ، فتغدو على كرّ الأجيال ، وقد غاضت معالمها الحقيقيّة ، ورسخت صورها التي ينسجها الخيال ، وأضحتْ تحجب ما عداها من الصور التي تعتمد على الحقائق التاريخيّة .

وهذا القول ينطبق على شخصيّة «بهاء الدين قراقوش» وزير السلطان صلاح الدين ، فإنّ الرواية التاريخيّة تقدّمه إلينا وزيراً نابهاً ، وإداريًّا حازماً ، قام بمشروعات إنشائيَّة عظيمة ، هذا بينما تقدّمه إلينا الأسطورة ، أو بعبارة أخرى يقدّمه إلينا القصص الشعبيّ ، طاغية غشوماً ، وحاكماً ظالماً ، سفّاكاً للدماء ، متجاهلاً كلّ حق ، وكلّ عدالة وكلّ رفق ، حتى إنه غدا مضرب الأمثال لكلّ عسف وجور ، يتمثل ذلك في العبارة الشعبية المأثورة : «حكم قراقوش» .

فما هو وجه الحقيقة في ذلك؟ . . وما هي حقيقة شخصيّة هذا الرجل الذي تدمغه الأساطير الشعبيّة بهذه القسوة؟ وأخيراً ما

هو مبعث هذه الأساطير والظروف التي ترعرعت فيها؟ هذا ما سنحاول أن نعالجه في هذا المقال .

تُحدثنا الرواية التاريخيّة المعاصرة والقريبة من العصر ،عن بهاء الدين قراقوش ، وتقدّمه إلينا في صور طيبة ، تختلف كلّ الاختلاف ، عما تقدمه إلينا الأسطورة . وقد عني ابن خلكان بترجمته بين أعيان وفياته ، وهو أبو سعيد قراقوش بن عبد الله الأسدي الملقب ببهاء الدين . وقراقوش معناها بالتركية «النسر الأسود» وكان خصيًّا أبيض من خدم أسد الدين شيركوه عمّ صلاح الدين . فلمّا تولى صلاح الدين الوزارة للخليفة الفاطميّ العاضد بالله ، جعله متولّي القصر الفاطميّ ، حرصاً على ما فيه . ولما استقلّ صلاح الدين بشؤون مصر ، عيّنه كبيراً لشؤون القصر الخاص ، فأبدى همّة وغيرة وكفاية في كلّ ما أسند إليه ، وتقدَّم في الحظوة حتى غدا رجل صلاح الدين الأوّل وساعده الأيمن ، يوليه كامل ثقته ويندبه لمهامّ الأمور .

ولما غاب صلاح الدين عن مصر مدّة ، عيّن قراقوش نائباً عنه ، وفوّض أمورها إليه ، فوطّد الأمور ، وضبط النظام والأمن . وقد قام قراقوش خلال خدمته لصلاح الدين بطائفة من أعظم الأعمال الإنشائيَّة التي خلّدت اسمه ، والتي ما زالت آثارها ماثلة بيننا . فهو الذي أنشأ قلعة الجبل العظيمة على سفح المقطّم ، وكان صلاح الدين قد رغب في إنشاء معقل حصين يعتصم به ويكون فيه آمناً على نفسه من كيد خصومه ، من شيعة الفاطميّين

وغيرهم ، ويجعله مستقراً له ، وقاعدة لحكمه ، فتولّى قراقوش تحقيق رغبته ، وقام على إنشاء القلعة ، وذلك في سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) وأنشأ بئرها العجيبة لتمدّها بالماء . وكان صلاح الدين قد رأى في نفس الوقت أن يبني سوراً عظيماً يضمّ القلعة ومدينتي مصر والقاهرة ، بعد أن اتسعت أحياء القاهرة التي خارج السور الفاطمي القديم ، فلم يرَ أيضا خيراً من قراقوش لتحقيق رغبته . وأبدى قراقوش في تنفيذ هذا المشروع همّة فائقة ، وأزال عدداً كبيراً من القبور والمساجد التي تعترض خطط السور ، وهدم كثيراً من الأهرام الصغيرة التي كانت قائمة بالجيزة تجاه مدينة مصر ، واستعملت أحجارها الضخمة في بناء السور والقلعة .

وابتنى قراقوش أيضًا قناطر الجيزة العظيمة على النيل ، على مقربة من الأهرام ، وابتنى عدداً آخر من المنشآت . ولـمّا استولى صلاح الدين على ثغر عكّا من يد الفرنج ، ندب قراقوش لإصلاحه وترميم أسواره وقلاعه ، ثمّ عاد الفرنج فاستولوا عليه ووقع قراقوش أسيراً في أيديهم . ولم يفرج عنه إلا لقاء فدية عظيمة . ولما نجا قراقوش من الأسر ، ومثل أمام السلطان ، سُرَّ صلاح الدين بخلاصه أيّما سرور ، وأعلى مرتبته ، وغمره بصلاته ، ولبث قراقوش على حظوته ، حتى توفي صلاح الدين في سنة ٥٨٩ هـ . وعاش قراقوش بعد ذلك عدّة أعوام أخر ، رفيع المكانة وافر الهيبة نافذ الكلمة ، حتى توفي في سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠١ م) .

ونستطيع على ضوء هذه الخلاصة الموجزة لسيرة قراقوش أن نقول إنّه كان شخصيَّة بارزة ، وإنه قام بأعمال جليلة . وهذا هو نفس ما تردّده التواريخ المعاصرة والقريبة من عصره . ويكفي أن نذكر في هذا المقام ما رواه معاصره العماد الأصفهاني ، مما جاء في وصفه على لسان صلاح الدين حينما تقرر ندبه لإصلاح ثغر عكّا ، وهو : «الراجح الرأي ، الناجح السعي ، الكافي ، الكافل بتذليل الجوامح وتعديل الجوانح . وهو الثبت الذي لا يتزلزل ، بهاء الدين قراقوش الذي يكفل جأشه بما لا تكفل به الجيوش» . وقال عنه ابن خلكان وقد عاش قريباً من عصره : «وكان رجلاً مسعوداً وصاحب همّة عالية» .

ومتى تقرّر ذلك فإنه يحقّ لنا أن نتساءل عن سرّ تلك الأحكام القاسية التي تحيط بها الأسطورة شخصيّة قراقوش والتي تقدّمه إلينا في صور قاتمة مثيرة .

والظاهر أنَّ هذه الأساطير الشعبيَّة المثيرة قد ظهرت في عصر قراقوش ذاته ، أو من بعده بقليل ، فقد انتهت إلينا رسالة خطية صغيرة منسوبة لأسعد بن مماتي ناظر الديوان في عهد صلاح الدين ، عنوانها «الفاشوش في أحكام قراقوش» يحمل فيها على قراقوش بشدّة ، ويرميه فيها بالطغيان والغفلة ، ويقول في مقدّمتها : «إنّني لما رأيت عقل بهاء الدين قراقوش مخرمة فاشوش ، قد أتلفت الأمة ، وضعت هذا الكتاب لصلاح الدين ،

عسى أن يريح منه المسلمون (كذا)» .

وتحتوي هذه الرسالة على عدّة أخبار ونوادر منسوبة لقراقوش ، للتدليل على اضطراب تفكيره ، وعلى شدّة جوره وعسفه . وقد نسبت هذه الرسالة (عدا الديباجة) أيضاً إلى السيوطي ، ووردت فيها نفس الأخبار والنوادر . بيد أن المرجَّح أنّها ترجع إلى عصر صلاح الدين ذاته ، بدليل أنَّ ابن خلكان يشير إليها ، ويبدي ريبه في صحّة ما ورد فيها ، ويرجِّح أنها موضوعة ، وليست من تأليف ابن مماتي . وقد استرعى نظرنا من بين النوادر ، التي نسبت فيها لقراقوش نادرتان :

الأولى - أنّه أمر بحبس دائن شكا من مماطلة غريمه . وذلك أنه أمر بالقبض على المدين ، فاحتجّ بأنّه رجل فقير وأنه كلّما اقتصد مبلغاً ، وأراد إعطاءه للدائن لم يجده ، فعندئذ قال قراقوش : احبسوا صاحب الحق ، حتى إذا حصل المدين شيئاً يجد له موضعاً يدفع له فيه . فعندئذ قال صاحب الحق : تركتُ حقّي يا مولاي وأجري على الله . ومضى لشأنه .

الثانية - أنّه كان بمصر تاجر غنيّ بخيل ، وكان له ولد يقترض باسمه ، واستمرّ في الاقتراض حتى زاد عليه الدَّين ولم يمت أبوه . فاتفق مع الدائنين على أن يدفن والده بالحياة . وانقضّوا عليه بالفعل ذات يوم ، فغسلوه وكفّنوه ، ووضعوه في النعش ، وهو يصيح ، فلا يغاث . فلمّا وصلوا إلى المسجد للصلاة عليه ،

اتفق أن كان قراقوش مارًّا فنزل وصلّى عليه مع المصلّين ، وسمع الميت المزعوم ذلك ،فصاح مستغيثاً وهو يقول :يا مولاي أنقذني من ولدي ، فهو يريد دفني بالحياة . فقال قراقوش للولد : كيف تفعل ذلك بوالدك؟ فقال : هو كاذب يا مولاي فإني لم أغسله ولم أحمله في التابوت إلاّ وهو ميت ، وهؤلاء الحاضرون يشهدون بذلك . فقال قراقوش للحاضرين : أتشهدون بصحّة ما قال؟ فقالوا : بلى نشهد . فالتفت قراقوش للميت وقال : كيف أصدّقك وحدك ، وأكذّب هؤلاء الحاضرين ،روح اندفن لئلاّ تطمع فينا الموتى ، ولا يبقى أحد يدفن بعد هذا اليوم ،فحُمل الرجل ودفن بالحياة !

ورسالة «الفاشوش» تضم عدّةً من الأخبار والنوادر المماثلة ، وكلّها من أفانين الخيال الشعبيّ ، وكلّها بعيدة الاحتمال والتصديق . وقد رفض تصديقها مؤرّخون عظام مثل ابن خلكان الذي عاش قريباً من هذا العصر . بيد أنها لبثت تتناقل على كرّ العصور ، وتدمغ اسم الرجل الذي نُسبت إليه ، وتغمر شخصيّته الحقيقيّة بوابل من الصفات والأحكام القاسية التي ما زالت تعلق به حتى عصرنا هذا .

بيد أنّه يحقّ لنا أن نتساءل : كيف يمكن أن تصدر مثل هذه الترّهات والأباطيل من رجل مثل قراقوش ، كان وزيراً لملك عظيم مثل صلاح الدين يقدّر أقدار الرجال ، وكان معاونه الأثير

لديه ، الحائز لكامل عطفه وثقته ، وكان صلاح الدين يدّخره للاضطلاع بكلّ عظيمة من الأمور والمهامّ؟

وفي رأينا أنّ السرّ في هذا التزييف التاريخيّ ، يرجع إلى شخصيّة قراقوش نفسه ، وإلى أعماله الضخمة . فقد كان قراقوش شخصيّة ممتازة ، وافرة الصرامة والحزم . وقد امتازت بالقوّة والسرعة في إنجاز المنشآت العظيمة ، التي كان في مقدّمتها إنشاء قلعة الجبل ، وسور القاهرة ، وقناطر الجيزة ، وكلها من المنشآت الهائلة ، التي تقتضي إقامتها حشد عشرات الألوف من الرجال . وقد رأينا فوق ذلك أنّ قراقوش أمر بهدم عدد كبير من الأهرامات الصغيرة لكي يستعين بأحجارها الضخمة على إقامة هذه المنشآت . ونحن نعرف ما يقتضيه مثل هذا العمل من الجهود الضخمة المضنية . وقد كان يعتمد في العصور الوسطى في إنجاز الأعمال العامة بالأخصّ على السخرة ، وحشد الأيدي العاملة بطريق القسر والإرهاق . وقد كانت هذه الوسيلة تتخذ على يد رجال أقوياء مثل قراقوش صُوَراً مثيرة من الخشونة والقسوة ، فكان يحشد عشرات الألوف أو مئات الألوف أحياناً من العمّال والأسرى والعبيد ، ومعظمهم يحشد رغم أنفه . وربما خطف الناس من الشوارع أو من منازلهم ، ثم يساقون إلى العمل قسراً تحت إشراف نفر من العرفاء الظلمة القساة ؛ ولا يحصلون من الأجر إلاّ على كسْرة جافة يتبلغون بها . وكان الكثير منهم يهلك من القسوة والإنهاك وسوء التغذية .

وهكذا كان قراقوش خلال الأعمال الضخمة التي قام على إنشائها رمزاً لكلّ هذه القسوة وهذا الظلم الفادح ،وكان مسؤولاً في نظر العامة عن هذه الضحايا العديدة التي تتساقط ألوفاً في سبيل الإشادة بمقدرته وعزمه وكفايته .وربّما كان قراقوش فوق ذلك تطبعه ألوان من القسوة والسذاجة وهي عادةً ممّن يقترن بصفات هذا الصنف من الرجال الذين يجمعونَ بين القوة والصرامة والعزم .

ابتدع الناس هذه الصور المثيرة لقراقوش ،ولصقت به منذ عصره ،ثم تناقلتها الأجيال ، وزادت عليها ما شاء الخيال الشعبيّ الخصب ، فأضحى قراقوش وقد غمره سيل الأساطير ، واستبدلت شخصيّته التاريخيَّة العظيمة بتلك الشخصيَّة القاتمة الزائفة التي ما زالت تلاحقه وتغلب عليه حتى عصرنا» .



قراقوش كما تخيله ورسمه الفنان جمال قطب

الباب الثاني

طرائفه ونوادره كما وردت في «الفاشوش في أحكام قراقوش»

«إنّ الأسعد بن مماتي له جزء لطيف سمّاه «الفاشوش في أحكام قراقوش» وفيه أشياء يبعد وقوع مثلها منه ، والظاهر أنّها موضوعة ، فإنّ صلاح الدين كان معتمداً في أحوال المملكة عليه ، ولولا وثوقه بمعرفته وكفايته ما فوّضها إليه» .

ابن خلّكان

ينتظر طلوع لحيته!

جاء إلى قراقوش يوماً ، ثلاثة رجال : أحدهم ليس له لحية ولا شارب ، والآخران كبيرا اللحيتين . وقد تعدَّى الأجرود على كلٍّ منهما ، ونتف ذقنه من جذورها ، فذهبَ الرجلان إلى قراقوش ، وقالا له :

- يا مولانا بهاء الدين ، خُذْ لنا حَقّنا من هذا الأجرود ، فقد نتف ذقوننا ، وخرق ثيابنا .

فنظر قراقوش إلى الأجرود ، وقال لصاحبيه :

- ويلكما ، نتفتما ذقنَ هذا الصبيّ ، وجئتما تشكوانه إليّ؟ ! أرسلوهما إلى الحبس ، ولا تُخرجوهما حتى تطلع ذقن الصبيّ .

عاش العَدْل!

حكي أن جنديًا نزل في مركب ، وكان به فلاح وزوجته ، وكانت الزوجة حاملاً في سبعة أشهر ، وضربها الجندي

فسقطت[١] ، فذهب الفلاح إلى الأمير بهاء الدين قراقوش وشكا إليه الجنديّ ، فقال الأمير بهاء الدين للجندي :

- خُذْ زوجةَ الفلاّح عندك ، وأطعِمْها ، واسقها حتى تصير في سبعة أشهر ثمَّ أعدْها إلى زوجها .

فقال الفلاّح :

- يا مولانا ، تركتُ أجري على الله .

وأخذ زوجته ، وهرب .

* * *

وممّا يشبه هذه الطرفة أنَّ جاريةً جاءت أبا ضمضم فقالت : إنّ هذا قبّلني ، قال لها : قبِّليه ، فإنّ الله يقول : ﴿ والجروح قصاص ﴾ .

وارتفع رجلان إلى أبي ضمضم ، فقال أحدهما : أبقاكَ الله ، إنّ هذا قتل ابني . قال : هل لابنك أمّ؟ قال : نعم . قال : ادْفَعْها إليه حتى يُولدها لك ولداً مثل ولدك ويربّيه حتى يبلغ ولدك ويبرأ به إليك .

* * *

يسجن الدائن

حُكي أن شخصاً شكا إلى الأمير بهاء الدين قراقوش مماطلة

---

(١) أي أجهضها .

غريمه[1] ، فذهب المدين إلى الأمير ، وقال له :

- يا مولانا . . . إنّي رجل فقير ، وكلّما حاولتُ أن أحصل له على شيء لم أجده ، فإذا صرفتُ هذا الشيء جاءني الدائن وطالبني .

قال قراقوش :

- احبسوا صاحب الحق حتى يصير المديون إذا حصل على شيء يجد لصاحب الحق موضعاً معلوماً يذهب إليه فيه ويدفع له الحق .

فقال صاحب الحق :

- تركتُ أجري على الله .

ومضى .

* * *

وممّا يشبه هذه الطرفة أنّ المأمون سأل رجلاً من أهل حمص عن قضاتهم ، فقال : الرجل :

- يا أمير المؤمنين ، إنّ قاضينا لا يفهم ، وإذا فهم وَهِم[2] .

قال :

- ويحكَ ، كيف هذا؟

---

(١) مماطلة غريمه : تسويفه بالدفع .

(٢) وهِمَ : أخطأ .

قال :

- قَدمَ عليه رجلان فادّعى أحدهما على الآخر بأنّ له في ذمّته أربعة وعشرين درهماً ، فأقرّ له الآخر بذلك .

فقال :

- أعطه .

قال المدين :

- أصلح الله القاضي ، إنّ لي حماراً أكتسب عليه كلّ يوم أربعة دراهم ، أُنفقُ على الحمار درهماً ، وعليّ درهماً ، وأدّخر له درهمين ، حتى إذا اجتمع ماله غاب عنّي فلم أره فأنفقتها ، وما أعرف وجهاً إلاّ أن يحبسه القاضي اثني عشر يوماً حتّى أجمع له إيّاها .

فحبس صاحب الحقّ حتّى جمع ماله .

فضحك المأمون وعزله .

طار الباز ، أقفلوا الأبواب!

روي أنّ قراقوش كان له باز يعتزّ به ، ويُعنى بتربيته ، فطار الباز يوماً من عنده . وبلغ ذلك الأمير قراقوش ، فقال :

- أقفلوا باب النصر[1] ، وباب زويلة[2] ، حتّى لا يجد الباز له

(١) باب من أبواب القاهرة آنذاك .

(٢) باب من أبواب القاهرة آنذاك .

موضعاً يطير منه ، فيعود إليّ !

انقضت السنة بيوم!

قيل إنّ امرأةً أتت بولدها إلى قراقوش ، فقالت :

- يا سيِّدي بهاء الدين ، إنّ ولدي شتمني . فأمر بحبسه سنة . فلم تذقْ أمُّه تلك الليلة طعمَ النّوم . فلمّا أصبحت راحت إلى السجّانين ، وقالت :

- ما الحيلة في خلاص ولدي من هذا الحبس؟

فقالوا لها :

- هاتي حَلاوتنا نعرفك أيش (أي شيء) تقولين للأمير بهاء الدين قراقوش .

فدفعتْ إليهم النقود . فقالوا لها :

روحي الساعة إلى الأمير ، وقولي له :

- يا سيِّدي أنا امرأة حبستَ لي ولدي سنة كاملة ، وقد انقضت السنة ، فأخْرِجْ لي ولدي من الحبس .

فأتت المرأة إلى الأمير ، وقالت له ذلك ، فقال لها :

- روحي الآن ، فلا جدالَ في أنّه قد بقي له من السنة سبعة أيام سوى أمس وغد .

نمضت المرأة وأعلمت السجّانين ، فقالوا لها :

- هذه نعمة ، فإذا كانَ الغد ، فروحي إليه ، وقولي له : قد انقضت الأيام السبعة .

فأصبحت المرأة ، وجاءت الى قراقوش ، فلمّا نظر إليها قال :

- يا امرأة ، حتى تغرب الشمس !

يا غلام : إذا غَرُبَت الشمس ، فأطْلِقْ لها ولدها من الحبس .

ولا ترجعي تجيبيه ، أو يحبسوه سنتين .

* * *

وممّا يشبه هذه الطرفة ما رواه علي بن هشام قال :

- كان للحجاج قاضٍ بالبصرة من أهل الشام يقال له أبو حمير ، فحضرت الجمعةُ ، فمضى يريدها ، فلقيه رجل من العراق ، فقال له :

- يا أبا حمير ، فأينَ تذهب؟

قال :

- إلى الجمعة .

فقال :

- ما بلغك أنَّ الأمير قد أخَّرَ الجمعة اليوم .

فانصرفَ راجعاً إلى بيته .

فلمّا كان من الغد ، قال له الحجاج :

- أين كنت يا أبا حمير ، لم تحضر معنا الجمعة؟

قال :

- لقيني بعض أهل العراق ، فأخبرني أن الأمير أخّر الجمعة ، فانصرفتُ .

فضحك الحجاج ، وقال :

- يا أبا حمير ، أما علمتَ أنَّ الجمعة لا تؤخَّر .

ثمن البغل

يُحكى أنه كان لقراقوش ولد اشترى لنفسه بغلاً بألف درهم ، وعرضه على أبيه ، فقال له أبوه :

- هذا غالي الثمن .

فرآه بعض المباشرين لبيع البغال والحمير ، فعلم منه أنَّ له غرضاً فيه ، فدخل معه على أبيه ، وقال :

- يا أخي ، لأيّ شيء أمرتم بردّ هذا البغل؟

فقال :

- لأنّه غالٍ بألف درهم .

فقال :

- يا مولانا ، اشتريناه بتسعمائة وتسعة وتسعين .

فقال الأمير :

- إنْ كان هكذا فما هو بغالٍ .

وأذِنَ لابنه في البغل .

إذا علفته ، لا تعلمْه أنّي عرفت

قيل : إنّ قراقوش سابَقَ رجلاً بفرس له ، فسبقه الرجل بفرسه ، فحلف قراقوش أنّه لا يعلف فرسه ثلاثة أيّام ، فقال له السائس :

- يا مولاي ، أخشَى أن يموت الفرس .

فقال له قراقوش :

- احلفْ لي أنّك إذا علفتَه ، يا هذا ، لا تُعْلِمُه أنّني دريتُ بذلك .

فحلف له الرجل ، وأعطى العلفَ للفرس .

يشنق البريء ، ويترك القاتل

قيل إنّ غلاماً لقراقوش كان يشتغل عنده (ركابدار)[1] ، وإنَّ هذا الغلام قتل نفساً ، فقال :

- اشنقوه !

فقيل له :

---

(١) ركابدار : السائس الذي يهتمّ بالخيل فينعلها .

- إنّه حدّادك ، ويُنْعِلُ لك الفرس ، فإنْ شَنَقْتَه خسرتَه ، ولم تجد غيره .

فنظر قراقوش ناحية بابه ، فوجد رجلاً قفّاصاً[1] فقال :

- ليس لنا بهذا القفّاص حاجة !

فلمّا أتوه به ، قال :

- اشنقوا القفّاص ، واتركوا الركابدار الحدّاد لكي يُنْعِل لنا الفرس .

قراقوش المحقّق

يحكى أنّه سُرِق مال في زمن قراقوش . فقال لصاحب المال المسروق :

- هل لحارتكم باب؟

فقال له :

- نعم .

فقال :

- اذهبوا إيتوني به .

ففعلوا ، وأحضروا ، إليه الباب .

فقال :

---

(١) القفّاص : صانع الأقفاص .

- حدّوه[1] .

فقالوا :

- يا مولانا ، هذا خشب لا يعقل .

فقال لهم :

- افعلوا ما آمركم به .

فمدّوه وضربوه . ونزل إليه قراقوش ، ووضع أذنه بجانبه ، وجعل يُوَشْوِشه ، فلمّا فرغ قال لهم :

- اجمعوا لي باقي أهل الحارة والدرب[2] .

فلما حضروا قال لهم :

- الباب يخبرني أنَّ الذي سرق المال على رأسه ريشة .

وكان سارق المال واقفاً بجملة الناس ، فتوهَّم ورفع يده إلى رأسه ، فرآه قراقوش ، فأمر به ، وقرّره بالضرب فأقرّ ، وأحضر المال ، ودفعه إلى أصحابه .

سماد للزّيتون

اشتكى الفلاّحون ، يوماً ، إلى قراقوش أنّ الزيتون قد تلف ،

---

(١) حدّوه : أنزلوا به الحدّ ، وهو العقاب الشرعيّ على السرقة .

(٢) الدرب : الطريق .

فأمرهم بأن يضعوا عليه زيتاً وحالوماً[1] ، وسامحهم من الخراج[2] ، وأوصاهم على ذلك .

يأمر بدفن الحيّ!

كان بمصر رجل تاجر . وكان بخيلاً . وكان ولده يقترض عليه على موته قَدْراً معلوماً . فزاد الدَّين عليه ، وما مات والده ، فاتَّفق مع الغرماء أن يدفنوا والده بالحياة .

قال : فدخل هو والمدينون عليه ، فحملوه ، وغسّلوه ، وكفّنوه ، ووضعوه في النعش ، وهو يصيح فلا يُغاث ، وجاؤوا حول تابوته يصيحون حوله ، فلمّا وصلوا للصلاة عليه ، اتّفق أنَّ قراقوش كان مارًّا ، فنزل ، وصلّى عليه ، فلمّا سمع الميت بذلك ، قال :

- الحمد لله جاءني الفرج .

فجلس في التابوت وقال :

- يا مولانا السلطان ، خلِّصْ حقي لي من ولدي ، فإنّه يريد دَفْني بالحياة .

فقال لولده :

- كيف تدفن والدك بالحياة .

---

(١) الحالوم : نوع من الجبن .

(٢) الخراج : الضريبة على المزروعات .

فقال :

- كذَب عليك يا مولانا ، ما غسَّلْتُه إلاّ وهو ميّت ، وهؤلاء الحاضرون يشهدون بذلك .

فقال للحاضرين :

- أتشهدون بذلك؟

فقالوا :

- نشهد بما قال الولد .

فالتفت قراقوش للميت ، وقال :

- أنا لنْ أصدّقكَ وحدك وأكذّبَ هؤلاء الحاضرين . اندَفنْ بلا شفاعة دفن ، لئلاّ تطمع فينا الموتى ، ولا يبقى أحد يندفن بعدَ هذا اليوم .

فحملوه ، ودفنوه بالحياة في ذمّة قراقوش .

وكسرتَ ذراعي زيادةً على ذلك!

دخل رجلان على قراقوش ، وادّعى أحدهما على الآخر أنّه عضّ أُذنه . فسأله قراقوش عن ذلك ، فقال :

- إنّه هو الذي عضّ أُذنَ نفسه .

فقام قراقوش ، ودخل غرفته ، وجلس على كرسيّ ، وأخذ يحاول أن يعضّ أذنه ، فلم يفلح في ذلك ، ومال به الكرسيّ من

كثرة التفاته ومحاولاته ، فوقع على يده ، فانكسرت ، وخرج وهو بهذه الحالة ، وأمر بضرب المدَّعَى عليه ، وقال :

- أنتَ الذي عضضتَ أذنَ الرجل هذا ، وكسرتَ ذراعي زيادة على ذلك .

* * *

ولجحا المشهور طرفة مماثلة ، فقد روي أنّه جاء شخصان يشكوان لجحا ، فقال أحدهما :

- إنّ هذا الرجل عضّ أذني .

وقال الثاني :

- بل هو عضّ أذن نفسه .

فقال جحا :

- اصبرا لحظة حتَّى أجيء إليكما .

وذهب جحا إلى محلٍّ خالٍ ، وأراد أن يجرِّب أيستطيع عضّ أذن نفسه أم لا؟

فكان يجرّ أذنه إلى جانب فمه ، يعوج فمه إلى ناحية أذنه زماناً طويلاً ، إلى أن وقع وقعة شديدة ، وشُجَّت رأسه[1] . فرجع إليهما ، وقال :

---

(١) شُجت رأسه : جُرحت .

- لا يستطيع أحد أن يعضَّ أذن نفسه ولكنّه يمكنه أن يشجّ رأسه .

قراقوش يحبّ البيض !

كان قراقوش يميل إلى البيض ، ويكره السود . واضطرته الظروف في يوم ما إلى الحكم بين امرأة حجازيَّة ، وجارية لها تركيَّة . وكانت هذه أوّل مرّة يحكم فيها .

قالت الحجازيَّة لقراقوش :

- إنّ هذه جاريتي قد أساءت الأدب عليّ .

فنظر قراقوش إلى بياض الجارية التركيّة وسواد الحجازيَّة ، فقال للحجازيَّة :

- ويلك ! خلقَ الله جارية تركيَّة لجارية سوداء حجازيَّة؟ ما أنا بأحمق أو مغفّل ! يا عثمان ، أرسلوا هذه الحجازيَّة إلى السجن .

فمكثت الحجازيَّة شهراً ، وما لبثت أن عادت إليه تقول :

- إنَّني قد أعتَقْتُها لوجه الله تعالى .

فقال لها قراقوش :

- يا سبحان الله ! إنّها هي التي تُعتقك ، فإنَّك جاريتها ، وإنْ أرادت أن تبيعك ، فإنّها تبيعك ، وإنْ أرادت عتقك فإنها تعتقك ، فقالت الحجازيَّة للتركيَّة :

- اعملي معي مثل ما عملتُ معكِ .

فقالت التركيَّة :

- وما تريدين مني ؟

فقالت الحجازيَّة :

- اذهبي إلى قراقوش وقولي له : إنك تُعتقينني لوجه الله تعالى .

فذهبت التركيَّة إلى قراقوش ، وقالت له :

- قد أعتقتُ سيّدتي الحجازيَّة لوجه الله تعالى .

فقال قراقوش :

- جزاكِ الله خيراً .

وخرجت الحجازيَّة من السجن .

قراقوش والقاضي

بات قراقوش ليلة عند أحد القضاة ، فأخرج له خبزاً مجفَّفاً يسمَّى (القراقيش) ، وشيئاً من الزيتون . فقال له قراقوش :

- تعالَ إليّ في الغداة .

فلمّا أصبح القاضي ركب مهرةً له ، وأتى إلى قراقوش يسلِّم عليه . فأبصر حصان قراقوش مهرة القاضي ، فشبّ عليها ، وغضب قراقوش ، وحصل له بذلك تشويش ، فأمر أن يوضع

القاضي في الحبس سنة كاملة .

ثمَّ بدا له أن يخرجه ، فأخرجه ، وجعله يعمل في المكان الذي يجمع فيه محصول السلطان من الغلال ، وكان يسمَّى الأهراء .

فمكث القاضي سنةً في أطيب عيش .

ثمّ جاء إلى قراقوش ، وقْت الغلّة ، وجَمْع المحصول ، فقال له قراقوش :

- ما هذا؟ خلطت القمح والشعير والفول والحمّص في صحيفة واحدة !

يا غلمان احبسوه .

فمكث القاضي في الحبس سنة . فدخل الحبس رجل نصرانيّ ، فتحدّث هو والقاضي ، فعلّمه كيف يتخلّص من الحبس ، إذْ أخذ النصراني الصحيفة من القاضي ، وكتب «القمح» وحده ، ثم بعث بها إلى قراقوش ، وبعد شهر كتب «الشعير» وحده في صحيفة أخرى ويعث بها إلى الأمير ، ويعد شهر كتب «الفول» وحده في صحيفة ثالثة ، وبعد شهر كتب «الحمّص» وحده في صحيفة رابعة .

فلمّا وصلت الصحائف كلّها إلى قراقوش قال :

- لقد تعبتَ يا فقيه ، فَصَلْتَ هذا عن هذا ، ونقَّيْتَ ذلك من ذاك .

يا غلمان زفّوه في المدينة .

فزفّه الغلمان في المدينة .

فحلف القاضي ألاّ يخدم قراقوش منذ ذلك اليوم .

قراقوش والشاعر المادح

جاء رجل إلى قراقوش ، ومدحه بقصيدة ، وأنشدها بصوت طيِّب .

فقال له قراقوش :

- يا مُقرىء ! لقد قرأتَ قراءةً طيِّبة ، وأنا أريد أن أطبع هذه القصيدة على ذراعي ، فأنتَ مَدَحْتَنا ، ونحن دعونا لك ، فجزاكَ الله عنّا خيراً .

فقال الشاعر :

- وأنت فلا جزاك الله عنّا خيراً .

فقال بهاء الدين قراقوش :

- كأني أراك جائعاً . أعْطوه مائة إردبّ [1] قمحاً .

فأخذها الشاعر وانصرف !

* * *

ومن ألطف ما اتفق أنّ بعض الخلفاء كان يحفظ الشعر من مرّة . وعنده مملوك يحفظه من مرّتين ، وجارية من ثلاث مرّات .

(١) الإردبّ : مكيال مصريّ .

وكان بخيلاً جدًا ، فكان الشاعر إذا أتاه بقصيدة قال له : إن كانت مطروقة بأن يكون أحد منّا يحفظها نعلم أنّها ليست لك ، فلا نعطيكَ لها جائزة . وإنْ لم نكن نحفظها فنعطيك وَزْن ما هي فيه مكتوبة . فيقرأ الشاعر القصيدة ، فيحفظها الخليفة من أول مرّة ولو كانت ألف بيت . ويقول للشاعر : اسمعها علي فإنّي أحفظها وينشدها بكمالها . ثم يقول : وهذا المملوك أيضاً يحفظها . وقد سمعها المملوك مرّتين : مرّة من الشاعر ومرّة من الخليفة ، فيحفظها ويقرأها . ثم يقول الخليفة : وهذه الجارية التي وراء الستر تحفظها أيضاً . وقد سمعتها ثلاث مرّات : مرّة من الشاعر ، ومرّة من الخليفة ، ومرّة من المملوك ، فتقرأها بحروفها . فيخرج الشاعر صفر اليدين . وكان الأصمعيّ من جلسائه وندمائه . فنظم أبياتاً مستعصية ، ونقشها في أسطوانة ولفّها في ملاءة ، وجعلها على ظهر بعير . ولبس جوخة بدويّة مفرجة من وراء ومن قدّام . وضرب له لثاماً لم يبين منه غير عينيه ، وجاء إلى الخليفة ، وقال : إنّي امتدحتُ أمير المؤمنين بقصيدة ، فقال : يا أخا العرب ، إنْ كانت لغيرك فلا نعطيك لها جائزة ، وإن كانت لك نعطيك زنة ما هي مكتوبة فيه . قال : قد رضيتُ ، وأنشد :

صوتُ صفيرِ البلبلِ هيَّجَ قلبَ الثَّملِ
الماءُ والزهرَ معاً مَعَ حُسْنِ لحظِ المقلَ
وأنتَ حقّاً سيدي وسُؤْدَدي ومولَلي

وطاب لي نَوْح الحما م قَوْقَقو بالزجلِ

تد فاحَ من لحظاتها عبيرُ وردِ الخَجَلِ

وقلت وَصْوص وَصْوصْ فجاء صَوْتٌ من علِ

وقال لا لا لا لَلا وقد غدا مُهَرْولي

وفتية يسقونني قُهَيْوَةً كالعسلِ

شَمَمْتُهَا في أنْفي أزْكَى من القرنفلِ

في بستان حسن بالزهر والسرولِ

والعود دَنْدَنْ دَنْدَنْ والطبلُ طَبْطَبْطَبَ لي

والرقص أرطب طبطب والماءُ شَقْشَقْشَقَ لي

شَوَوا شووا شووا على وريق السفرجلِ

وَغَرَّدَ القمريّ يصح من ملل مَنْ مللي

فلو تراني راكباً على حمار أعزلَ

أمشي على ثلاثة كمشية العرنجلي

والناس قد تَرْجُمني في السوق بالبقلِ

والكلُّ كَعْ كَعَ ككع خلفي ومن حويللي

لكنْ مشيتُ هارباً من خشية في عقللي

إلى لقاء ملك مُعَظَّم مُبَجَّلِ

يأمرُ لي بخَلْعَة حمراءَ كَالدمَلْمَلَ

أجرُّ فيها مارباً بغدد كالدُّلْدُلَ

قال: فلمّا فرغ من إنشادها، بهت فيها، ولم يحفظها الخليفة

لصعوبتها . ثم نظر إلى المملوك ، فأشار إليه أنّه ما حفظ منها شيئاً . وفهم من الجارية أنّها ما حفظت منها شيئاً . فقال الخليفة : يا أخا العرب إنّك صادق ، وهي لك بلا شك ، فإنّي ما سمعتها قبل ذلك . فهات الرقعة التي هي مكتوبة فيها حتى نعطيك زنتها . فقال : يا مولاي إنّي لم أجد ورقاً أكتب فيه . وكان عندي قطعة عمود رخام من عهد أبي ، وهي ملقاة في الدار ليس لي بها حاجة ، فنقشتها فيها . ولم يَسَع الخليفة إلاّ أن أعطاه زنتها ذهباً . فنفد جميع ما في خزانة الملك من المال ، فأخذ الأصمعيّ ذلك ، وانصرف . فلمّا ولّى قال : يغلب على ظنّي أن هذا الأعرابيّ هو الأصمعيّ . فأحضره ، وكشف عن وجهه ، فإذا هو الأصمعي . فتعجّب من صنيعه ، ورجع عمّا كان يعامل به الشعراء ، وأجراهم على عوائد الملوك .

(حلبة الكميت للنواجي)

وإذا صرتَ في عمره دفَعَ لك هذه الدار

حُكي أنَّ قراقوش جاءه شيخ وصبي أمرد ، كلٌّ منهما يقول :

- يا مولاي هذه داري !

وعند ذلك نظر قراقوش إلى الصبيّ ، وقال :

- معك كتاب يشهد لك؟

قال :

- لا .

قال الأمير بهاء الدين :

- فالدار ، إذن ، للشيخ الكبير .

يا صبي : ادفع له داره ، وإذا صرتَ في عمر هذا الشيخ الكبير ، دفَعَ لك هذه الدار .

خاف أن ينضب النّيل

توقَّف النيل بمصر أيّاماً ، فنظر قراقوش إلى جمال السقّائين ، وهي تمشي عشرين عشرين ، ففكَّر طويلاً ، وقالَ :

- لو أخذتْ كلُّ هذه الجمال من النيل ، لنفدَ ماؤه ، أو كاد ، ثم صاح :

- يا غلمان ، نادوا في المدينة : قد أمر بهاء الدين قراقوش لا يملي أحدٌ من النيل إلاّ جملاً واحداً . ففعلوا ذلك .

ثم أوفى النيل ، وبلغت زيادته حدًّا عظيماً ، فقال لهم :

- يا هؤلاء ! الويل لكم ، إن عدمتموني فكيف رأيتم رأيي عليكم؟ ما هو إلاّ رأي مبارك !

الحُكْم لمنْ سَبَق

حُكي أنّ قراقوش جاءه شاب مضروب ، فبعث معه خمسة

رجال من (الجاندرمة) أي الحراس المتتبّعين للعصاة والمجرمين .
فبلغ ذلك خصمه الذي ضربه ، فسبقه ووقف بجانب قراقوش .

فلمّا أقبل الشاب قال الخصم :

- هذا الذي قتلني وضربني !

فأقبل قراقوش على الشاب المظلوم ، وبطحه ، وضربه إلى أن أشرف على الموت ، والشاب يصرخ :

- أنا مظلوم ! أنا مظلوم !

فقال له قراقوش :

- سبقك .

- فحلف الناس أنّهم لا يقعدون ما دام قراقوش في البلد حاكماً .

قراقوش والغلام والديك

حُكي عن بهاء الدين قراقوش أنّهم أتوه يوما ما بغلام في يده ديك فقال :

- إنّ هذا الديك لو نقرَ عينك قلعها ! يا غلمان خذوا منه دية عينه .

فحلف الغلام المسكين ألاّ يقعد في مدينة يكون قراقوش حاكمها .

قراقوش والمحاسب النصرانيّ

حُكي أن رجلاً نصرانيًّا أتى إلى قراقوش ، فخاف أن يدخل بدواته الأبنوس السوداء فيقول الأمير :

صبَّحتَنا بالسواد .

فلفّ دواته في خرقة ، فسالت الدواة على ساق النصرانيّ ، فقال له قراقوش :

- ويلك ألأنك تغلط في دفاتر السلطان ، وتلحس الأغلاط ، وتمسحها ، صارت بدلتك سوداء . .

يا غلمان ، أرسلوه إلى الحبس حتى تبيضّ بدلته ، ثم ننظر في أن نخلّصه .

قراقوش يدفىء القطن بالصوف

حُكي أنَّ جماعةً من الفلاحين جاؤوا إلى قراقوش ، وشكوا إليه من خراج القطن(١) ، وقالوا له :

- يا مولانا السلطان ، البرد شوَّش على القطن(٢) هذه السنة ، وأنت تفرِّج عنّا ، وتسامحنا من بعض المال .

فكان من جوابه لهم بعد سكوت طويل :

---

(١) خراج القطن : الضريبة عليه .

(٢) أي لبَّده، فما عاد صالحاً .

- لأيّ شيء أسامح في بعض المال؟ لما رأيتم البرد اشتدّ ، كان عليكم أن تزرعوا مع القطن صوفاً لكي يدفئه ! ولكنكم استهنتم بالحكومة وبالزراعة ، ولم تفتحوا أعينكم لخدمة أستاذكم .

قراقوش ولحية الشرطيّ

جيء إليه مرّة بجماعة ، فأمر أن تحلق لحاهم وظهر أن أحدهم لا لحية له . فقال :

- احلقوا لحية هذا الشرطي مكانه .

الحدّ على الرجل والحمارة

ضبط رجال قراقوش رجلاً وحمارة في علاقة جنسيّة ، فأخذوهما إلى قراقوش ، فقضى بالحدّ[1] على الرجل والحمارة معاً ، وذلك كي لا تعود الحمارة إلى الزنا مرّةً أخرى .

الشّذوذ مع بني الجنس

شكت امرأةٌ زوجها إلى قراقوش لأنّه أقام معها علاقة جنسية خلافاً للطبيعة ، فأدانه قراقوش ، وحكم بالطواف به في شوارع المدينة ، وسبب إدانته له أنّ هذا الرجل لم يمارس هذا الشّذوذ مع

---

(١) الحدّ : هو العقوبة التي يحدّدها الشّرع على الجاني .

بني جنسه ، بل مارسه مع زوجته .

لو كنتُ لابساً القميص لوقعتُ!

نَشَرَ قراقوش قميصه يوماً بعد غسله ، فهبَّت رياح ، فأوقعت القميص من على الحبل ، فلمّا بلغ قراقوش خبر وقوع القميص تصدّق بألف درهم وقال :

- لو كنت لابساً هذا القميص ، ووقعت وقوعه ، لانكسرت .

يتصدَّق بالكفن

يروى أنّ قراقوش كان في كلّ سنة يتصدّق بمال جزيل ، فلمّا انتهت الصّدقة ، اشتكت إليه امرأة أنّ زوجها مات ، ولا كفن له ، فقال :

- أمّا صدقة هذه السنة ففرغت ، ولكن إذا جاءت السنة القادمة ، فتعالي نأمر لكِ بكفن إن شاء الله تعالى !

عجز فقرّر البيع

عجز قراقوش عن مجامعة جارية له ، فلم يقرّر بيعها ، بل قرّر بيع العضو الفاشل الذي قصَّر .

الباب الثالث

نوادر وطرائف قراقوش غير الواردة في «الفاشوش في أحكام قراقوش»[1]

(١) نسبها إليه أحد الباحثين المعاصرين ، وقد اخترنا بعضها .

حكم عادل

عثر أحد الشحاذين على كسرة خبز يابسة ، فأخذ يفكر في إدام[1] يغمسها به ، فمرَّ بدكان طاهٍ ، فرأى الطعام يغلي وروائح البهار كالعنبر صاعدةً منه ، فتقدَّم إلى القدر ، وأخذ يقطع اللقم من الخبز ، ويرفعها فوق البخار المتصاعد ، وكلّما ترطَّبت قطعة يأكلها ، فعجب الطاهي لهذا النوع من الطعام ، وأخذ يتأمّل فيه . وبعد أن فرغ الفقير من كسرة الخبز وأراد الانصراف قام الطاهي وتعلّق به طالباً ثمن ما أكله ، فامتنع الفقير لأنّه لم يتناول سوى البخار ، فشكاه الطاهي إلى قراقوش .فأُحضر الفقير أمامه ، وبعدما سمع إقرار الطرفين على الأصول المتّبعة ، أخرج بضعة دراهم من جيبه ، ورنَّها بقرب أذن الطاهي قائلاً : هات أذنك وخذْ رنين الدراهم ، فقال الطاهي متحيراً : ما هذه المعَاملة يا سيِّدي؟ فأجابه قراقوش : هذا هو الحق ، فمن باع بخار الطعام يقبض رنين الدراهم .

(١) الإدام : ما يُجعل مع الخبز فيطيّبه .

فائدة الإسهال

فُقد لفلاح حمار في حرّ الصيف ورابعة النهار وحاول أن يجدَه فلم يفلح حتى أنهكه التعب، فذهب إلى قراقوش، فرأى علامات التعب ظاهرة على وجه صاحب الحمار.

فأمر بإعطائه مسهلاً بالقوة ورميه بالشارع، وبعد التنفيذ أخذ مفعول الإسهال يعمل في بطنه، فدخل إحدى الخرائب ليغوّط فوجد الحمار، فصاح فرحاً: مسهّل بالإجبار أوجد الحمار! نصر الله قراقوش.

الصبّاغ هو المسؤول

حكي أنه بينما كان أحد الشباب مارًّا في طريقه شاهد امرأة جميلة فأخذ يتأملها، وبينما هو مأخوذ بالتمعّن بقوامها اللطيف صادفته حفرة في الطريق فسقط بها! وما كان منه إلا أن أقام الدعوى أمام قراقوش، فحكم بالحبس على الصبّاغ الذي صبغ ثوب المرأة بهذا الشكل الجميل الذي يلفت النظر.

العقاب قبل الخطأ

أعطى قراقوش ابنته جرّة لتملأها، ثم صفعها بكفّه قائلاً: إياك أن تكسري الجرّة، فقال الذين رأوها تبكي: هي طفلة يا قراقَوش، أيجدرُ بك أن تضرب هذه البنيّة بغير حق وهي لم

تذنب؟ فأجابهم : إنّي أريد أن أريها عاقبة كسر الجرّة حتى تنتبه ، وإلاّ فلا معنى للعقاب بعد كسر الجرّة .

انكسر الدينار

وقف رجلان أمام قراقوش أحدهما يتّهم الآخر بأنه استولى على دينار يخصّه وقع منه بالطريق والتقطه الآخر . فسأل قراقوش الرجل :

- هل عثرتَ حقًّا على دينار هذا الرجل بالطريق ولم تردّه إليه؟

فأجاب الرجل :

- نعم يا سيّدي عثرتُ على دينار بالطريق ، ولكنّه لا يخصّه إذ أن الدينار الذي وجدته عبارة عن قطعتين كلّ منها نصف دينار ، وهو يقول إن ديناره قطعة واحدة .

فردّ قراقوش :

- أعطه النصفين يا رجل . . من الجائز أنّ الدينار عندما سقط على الأرض انكسر إلى قطعتين .

الحلّ الصحيح

جاء رجل إلى قراقوش يشكو داراً كان قد اشتراها من ساكن

قديم بها ، حيث وجد بها مجموعة من الفئران . .

فأخذ قراقوش يفكر ثم قال :

- اصبر شهراً آخر فإن لم يطالب بها الساكن القديم . . صارت الفئران ملكك .

يحبّ أعداءه

جاؤوا إلى قراقوش برجل شرب الخمر . . فقال له قراقوش بغضب :

- ويحَك يا ملعون . . ألم يُعلموك أنَّ الخمر هي ألدّ أعداء الإنسان؟

فقال الرجل : نعم . . ولكنّني تعلّمت أيضاً أن أُحبَّ ألدّ أعدائي . .

فنظر قراقوش إلى رجاله وقال :

- هذا رجل فاضل : اخلوا سبيله ، وأعطوه كيساً من النقود أيضاً .

جزاء العصيان

جاء رجل إلى قراقوش يريد طلاق زوجته ، فسأله قراقوش عن السبب فقال الرجل :

- لقد كانت حاملاً في شهرها التاسع ، وسافرت أنا في تجارة لي وكنت قد أمرتها بعدم الولادة إلاّ حين أعود . . ولما رجعت وجدتها قد ولدت !

فأمر قراقوش بحبس المرأة . . قائلاً :

- يجب على الزوجة أن تطيع زوجها . . احبسوها جزاء عصيان أوامره .

بهيمة . . . ولكن !

كان رجل يجلس في داره ، فإذا بعنزة لجاره تدخل عليه فجأةً . . فذهب الرجل إلى قراقوش يشكو إليه عنزة جاره . . فأمر قراقوش بجلد العنزة لدخولها إلى البيت بدون استئذان . . فقال له وزيره :

- يا مولاي . . ولكنّها بهيمة .

فقال له قراقوش :

- اسكتْ يا أحمق . . الناس والبهائم عندي واحد في الحق ، ولو وقع الحق على بهيمة حتى ولو كانت أمّي أوأختي لأقمتُ عليها الحدّ . . ولم تأخذني في الله لومة لائم .

فرق بسيط

اجتمع قراقوش ببعض علماء التنجيم . . وكان قد أمرهم

بقراءة الطوالع وتحديد ميعاد القيامة . . ونظر قراقوش إلى كبير العلماء وسأله :

- والآن . . هل استطعتم تحديد يوم القيامة؟

فقال المنجّم : نعم يا مولاي . . ستكون بعد مليون عام من الآن . .

القسم الثاني

أبو العيناء وطرائفه ونوادره

الباب الأول

ترجمة أبي العيناء

«سمع ابنُ مكرم رجلاً يقول : من ذهب بصره قلّت حيلته . فقال : ما أغفلك عن أبي العيناء ، ذهب بصره ، فعظمت حيلته» .

شذرات الذهب

ترجمته(١)

هو أبو عبد الله محمد بن القاسم بن خلاد بن ياسر بن

---

(١) راجع ترجمته وأخباره في المصادر التالية :

- الوافي بالوفيات ٤/ ٣٥١ . المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ٥/ ١٥٦ . شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٢/ ١٨٠ ، ١٨٢ . نهاية الأرب في فنون الأدب ٤/ ٨٢ . معجم الأدباء ١٨/ ٢٨٦ . الديارات ص ٥٢ . تاريخ بغداد ٣/ ١٧٠ . معجم الشعراء ص ٤٠٢ . العبر في خبر من غبّر . ميزان الاعتدال في نقد الرجال ٤/ ١٣ . نكت الهميان في نكت العميان ص ٢٦٥ . الظرف والظرفاء ص ٧٥ ، ١٥٧ ، ١٦٨ . بهجة المجالس ١/ ٢٥٤ ، ٣٠٤ ، ٣١٥ . طبقات الشعراء ص ٤٠٨ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤٦٠ . حدائق الأزاهر ص ٥٤ ، ٥٦ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١١٦ ، ١٤٣ ، ١٥٢ ، ١٨٥ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤١ ، ٢٤٦ . وفيات الأعيان ٤/ ٣٤٣ - ٣٤٨ . أمالي المرتضى ١/ ٢٠ ، ١٧٩ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٩٧ ، ٢٩٦ ، ٢٩٩ ، ٣٠٤ ، ٣٦١ ، ٣٨٢ ، ٤٦١ ، ٥٠٩ ، ٢/ ٦٤ . كتاب الأمالي ١/ ٧٠ ، ٢/ ٩٣ ، ١٩٢ ، ٣/ ٩٥ . كتاب الحيوان ٣/ ٣٧ ، ٥/ ١٨٩ . اللطائف والظرائف ص ٧٩ ، ١٢٣ ، ٢٤٥ . زهر الآداب ص ١٥١ ، ١٥٨ ، ١٧٢ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، =

سليمان الهاشميّ بالولاء الضرير ، مولى أبي جعفر المنصور ، المعروف «بأبي العيناء» صاحب النوادر والشعر والأدب ؛ وأصله من اليمامة ومولده بالأهواز ومنشؤه بالبصرة ، وبها طلب الحديث وكسب الأدب ، وسمع من أبي عبيدة والأصمعيّ وأبي زيد الأنصاريّ والعتبيّ وغيرهم . وكان من أحفظ الناس وأفصحهم لساناً . وكان من ظرفاء العالم ، وفيه من اللّسن وسرعة الجوب والذكاء ما لم يكن في أحد من نظرائه ، وله أخبار حسان وأشعار ملاح مع أبي علي الضرير .

وكانت ولادته سنة إحدى وتسعين ومائة بالأهواز ، ونشأ بالبصرة وكُفَّ بصره وقد بلغ أربعين سنة . وكان جدّه الأكبر لقي عليًّا بن أبي طالب فأعياه في المخاطبة معه فدعا عليه بالعمى له ولولده ، فكلّ من عمي من ولد أبي العيناء فهو صحيح النسب فيهم ، هكذا قاله أبو سعيد الصلحيّ . وخرج من البصرة وهو بصير وقدم سرّمن رأى فاعتلّت عيناه فعمي ، وسكن بغداد مدّة

= ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٨ ، ٥٤٥ ، ٦٢٧ ، ٦٥٦ ، ٦٩٨ ، ٧٨٨ ، ٧٨٩ ، ٧٩٢ ، ٨٣١ ، ٨٨٢ . الموشّى ص ٣٧ ، ٩٤ ، ١٠٥ ، ١١٤ . أخبار الحمقى والمغفّلين ص ١٤١ ، ١٥٢ ، ١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩٩ ، ٢٢١ . ثمار القلوب ص ٣٣ ، ٣٨ ، ١٨٧ ، ٣٧٤ ، ٤٠٠ ، ٤٤٨ ، ٥٨٢ ، ٦٢٠ ، ٦٣٤ ، ٦٧٤ ، ٦٩٣ . المستطرف ص ١٠٤ ، ٢٥٥ ، ٢٦٥ ، ٢٧١ ، ٢٩٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٩ ، ٧٤٨ . فوات الوفيات ١/ ١٩٠ ، ٢٨٩ ، ٣/ ١٧٧ ، ٢٦١ . الأعلام ٦/ ٣٣٤ . دائرة المعارف ٤/ ٤٩١ ، ٤٩٢ .

وعـاد إلى البـصـرة ، وتوفِّي بهـا في جـمـادى الآخـرة سـنة ثلاث وثمـانين ، وقيل اثنتين وثمـانين ومائتين . وقال ابنه جعفر : توفِّي أبي لعشر ليـال خلون من جمادى الأولى ، ومولده سنة تسعين ومائة ، والله أعلـم ، رحمه الله تعـالى . ولقِّب بأبي العيناء لأنَّه قال لأبي زيد الأنصاريّ : كيف تُصغِّر عيناً؟ فقال : عييناً يا أبا العيناء ، فبقي عليه» .

وقال خير الدين الزركلي في ترجمته(١) :

«محمـد بن القاسم بن خـلاد بن ياسر الهـاشـمي (١٩١ - ٢٨٣ هـ/ ٨٠٧ - ٨٩٦ م) ، بالولاء ، أبو العيناء : أديب فصيح . من ظرفـاء العـالم ، ومن أسـرع الناس جـواباً . اشـتـهـر بنوادره ولطائفـه . وكـان ذكـيًّا جـدًّا ، حـسن الشـعـر ، مليح الكتـابة والترسّل ، خبيث اللسان في سبّ الناس والتعريض بهم . كُفَّ بصـره بعد بلوغـه أربعين سنة من عـمـره . أصله من اليـمـامة ، ومولده بالأهواز ، ومنشؤه ووفاته في البصرة . قال المتوكّل : لولا أنّه ضرير لنادمته ، فنقل إليـه ذلك فقـال : إن أعفـاني من رؤية الأهلّة فإنّي أصلح للمنادمة ! وأخبـاره كثيرة ، جمع بعضها المعاصر محمود محمود خليل في «مقالات» نشرتها مجلة الرسالة» .

(١) الأعلام : الزركلي ، ج ٦ ، ص ٣٣٤ .

أبو العيناء

بقلم محمود محمود خليل [1]

أبو العيناء ونسبه

أبو العيناء كاتب منشىء من كتاب القرن الثالث الهجري الحافل بأساطين الأدب وجلّة العلماء ، ولكنّه كاتب ضرير البصر من العباقرة الذين سجّل لهم التاريخ الذكر الحسن ، أمثال أبي العلاء المعرّي ، وبشّار بن برد وأضرابهما ، وكأنّ سنّة الله قد جرت في الخلق أن يقترن فَقْدُ البصر غالباً بالنبوغ والعبقريّة ، ولن تجد لسنّة الله تبديلاً . وإذا كان القدر قد أتاح لشاعر المعرّة فطاحل الكتاب والأدباء يدرسونه ويمحّصونه ، ويستخلصون فلسفته من شعره ، فلا أقل من أن يدرس أبا العيناء الضرير شخص مثلي ، وفي اعتقادي أنّ شخصيّة أبي العيناء جذّابة فكهة كما سترى ، وهي تفضل شخصيّة شاعر المعرّة العبوس المتبرّمة من هذه الناحية .

يحدّثنا الرواة أن أبا العيناء اسمه أبو عبد الله محمد بن القاسم

---

(١) عن مجلة الرسالة ، السنة الثالثة ، ص ١٦٥٦ ، ١٦٥٧ ، ١٧٠١ - ١٧٠٣ ، ١٨٢٤ - ١٨٢٦ ، ١٨٦٦ - ١٨٦٨ .

ابن خلاد بن ياسر بن سليمان ، وأصل قومه من بني حنيفة من أهل اليمامة ، ولحقهم سباء في خلافة المنصور العباسي ، فلمّا صار ياسر في يد المنصور أعتقه ، فهم موالي بني هاشم .

مولده ونشأته

وُلد أبو العيناء بالأهواز في آخر المائة الثانية للهجرة ، ونشأ بالبصرة ؛ وبها طلب الحديث وكسب الأدب ؛ وكان على استعداد تامّ للحرص على كل ما يلقى عليه . فأثمرت فيه تربيته بالبصرة الثمر الطيّب ، وأخرجته رجلاً فذًّا في الحياة ، مثقّفاً إلى درجة حسنة ، ولقد هيّأته تلك الثقافة إلى رواية الأخبار الطريفة ، والـمُلح اللطيفة ، والأشعار الجيّدة ، حتى لقد بلغ به الأمر أن يعرض عليه المتوكّل العباسي أن يكون نديمه على شرابه ، ويتمنّى عليه لو يجيبه ، فيمنعه عمى بصره عن الوصول إلى تلك المرتبة السنيّة ، وإن كان قد حاز منزلة سامية من قلب المتوكّل . ونرى الأصفهاني في كتابه الأغاني يجعله من رجال سنده في جملة أخبار أتى بها في كتابه ، يقول في سند له : أخبرني قدامة عن أبي العيناء عن العتبي ويمضي أبو الفرج فيروي لنا حديثاً طويلاً بهذا السند في أمر زواج ليلى العامريّة برجل من ثقيف ، وشعر مجنون بني عامر حين بلغه ذلك ، وسند آخر أتى به أبو الفرج . قال أخبرني محمد بن خلف ، قال حدثنا أبو العيناء عن القحذميّ عن أبي صالح السعدي ، ثمّ يمضي في رواية خبر

طويل يتعلّق بعمر بن أبي ربيعة ، وكذلك ينقل عنه الأبشيهيّ صاحب كتاب المستطرف ، وغير هذين المؤلّفين كثير ، وعَدُّ المؤلّفين لأبي العيناء من الرجال الذين يعتمد عليهم في رواية الأخبار والأشعار ما هيّأه لذلك إلاّ نشأته بين أولئك الفطاحل من البصريّين الذين تغذّى بلبّ علومهم ، واستصفى ثمار عقولهم .

كان أبو العيناء إذاً يتردّد على علماء البصرة يأخذ عنهم . فهل كان في هذا الوقت أعمى أم بصيراً؟ يقول الرواة إنّه ما عمي إلاّ بعد أربعين عاماً من عمره ، وهو زمن ليس بالقليل ؛ يكون أبو العيناء قد أخذ فيه بحظّ وافر من متعته ببصره . والغريب في هذا حقاً أنّ الرواة يسطّرون لنا أسطورة عن سبب عماه ؛ وهي أنّ جدّه الأكبر لقي عليًّا بن أبي طالب (رض) فأساء مخاطبته . فدعا عليه وعلى ولده بالعمى ، فكلّ من عمي منهم فهو صحيح النسب ، فهذا الخبر إن صحّ ينبثق منه شعاع من الحقيقة يتحكّم فيه قانون الوراثة ، فقد ورث عن آبائه سلاطة اللسان .

قال أبو العيناء حاكياً عن نفسه : أنا أوّل من أظهر العقوق لوالديه بالبصرة ، قال لي أبي إنّ الله قد قرن طاعته بطاعتي ، فقال تعالى :﴿ أن اشكر لي ولوالديك﴾ فقلت : يا أبت إنّ الله تعالى قد أمّنني عليك ولم يأمنك عليّ . فقال : ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإيّاكم﴾ . ولم يقف بسلاطته تلك على أهله وذويه ، فإنّ الناس كلّهم كانوا يخافون معرة لسانه ،

والسهام التي يقذفها في كلامه ، وتستطيع أن تجد له أخباراً كثيرة في كتب الأدب تؤيد ما ذهبنا إليه ، فهذا موقفه مع فتى ماجن أراد العبث به مرّة . فقال له يا أبا العيناء متى أسلمت؟ قال : حين أسلم أهلك وأبوك الذين لم يؤدّبوك . . . الخ ذلك الخبر ، وموقف آخر مع عيسى بن فرخان شاه الذي كان يتولّى الوزارة ، ويتيه فيها على أبي العيناء ، فلمّا عزل لقيه أبو العيناء في الطريق ، فسلّم عليه ، وأحفى ، فقال له : والله لقد كنت أقنع بإيمائك دون بيانك ، وبلحظك دون لفظك ، فالحمد لله على ما آلت إليه حالك ، فلئن كانت أخطأت فيك النعمة ، فلقد أصابت فيك النقمة ، ولئن كانت الدنيا أبدت مقابحها بالإقبال عليك ، فلقد أظهرت محاسنها بالانصراف عنك ، ولله المنّة إذ أغنانا عن الكذب عليك ، ونزّهنا عن قول الزور فيك ، فقد والله أسأت حمل النعم ، وما شكرت حقّ المنعم .

وموقف ثالث يقفه أبو العيناء مع بعض الوزراء في مجلسه إذ يمدح البرامكة ويذكر سخاءهم وجودهم ، فيقول الوزير : إنّما هذا من تصنيف الورّاقين ، وكذب المؤلّفين ، فقال أبو العيناء : فلمَ لا يكذب الورّاقون عليك أيّها الوزير؟ فأسكته وعجب الحاضرون من إقدامه عليه .

فهذه الأخبار وغيرها كثير تعطينا فكرة صحيحة عن سلاطة لسانه التي امتاز بها بين الأدباء المعاصرين له ، حتى كان الوزراء

وأرباب المناصب وغيرهم يخافونه ، ويتقون لسانه ، بل يدارونه . وتلك اللسانة كما قلت كانت موروثة عن آبائه ، فقد علمنا كيف أقدم جدّه الأكبر على عليّ بن أبي طالب (رض) ، وأساء مخاطبته حتى دعا عليه ، وحتى استُجيبت دعوته فيه ، وفي أحفاده من بعده . ولكن أبا العيناء يعتذر عن بذاءة لسانه حين سأله المتوكّل على الله بقوله : بلغني عنك شرّ . فقال يا أمير المؤمنين إن يكن الشر ذكر المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، فقد زكّى الله وذمّ ، فقال في التزكية : ﴿ نعم العبدُ إنّه أوّاب ﴾ ، وقال في الذمّ : ﴿ همّاز مشّاء بنميم منّاع للخير معتد أثيم ﴾ وقال الشاعر :

إذا أنَا لَمْ أمْدَحْ على الخير أهْلَه ... ولَمْ أذْمم الجِبْسَ اللئيمَ المُذَمَّما
فَفيمَ عَرَفْت الخيرَ والشرَّ باسمه ... وشَقَّ لِيَ اللهُ المَسَامِعَ وَالفَمَا

وإن كان الشرّ كفعل العقرب التي تلسع السنيّ والدنيّ بطبع لا يتميّز فقد صان الله عبدك عن ذلك .

وفي الحق إنّ أبا العيناء لم يكن يسفه على أحد من الناس إلاّ على من يتعرّض له بإساءة ، فإذا تجرأ على هذا شخص فويل له من لسانه ، ولقد أجاب المتوكّل إذ قال له كم تمدح الناس وتذمّهم؟ فقال : ما دام المحسن يحسن والمسيء يسيء ، وغرضه بهذا أنّه يعطي كلّ إنسان ما يستحقّه من مدح أو ذمّ . ولقد مدح أناساً كثيرين ، ولكنّه ذمّ أكثر ممّا مدح ، وإنّا وإن كنّا نعتقد أنّ أبا

العيناء قد أسرف في الذمّ إسرافاً كثيراً ، فإنّ من الحقّ علينا أن نعترف أنّ هناك عوامل أخرى جعلته يسرف هذا الإسراف ، وهي :

١) الوراثة ، وقد تعرّضت لها فيما سبق بحديث مستفيض ، فلا حاجة بي الآن إلى تكرار القول فيها .

٢) نشأته فقيراً ، وطالما كان الفقر وهو مثير الأضغان والأحزان ، منبعاً للنبوغ والذكاء ، ونجد فقره هذا اضطرّه فيما بعد إلى الارتحال من منبت نشأته ، وهو البصرة إلى بغداد طلباً لعطايا الخلفاء والوزراء ، وكلّ أحاديثه مع الكبراء تنبئنا بفقره المدقع ، فقد دخل مرّة على عبيد الله بن سليمان بن وهب الوزير فضمّه إليه ، فقال له أنا إلى ضمّ الكفاية أحوج منّي إلى ضمّ اليدين . وقال له مرّة أنا معك مغبوط الظاهر موجود الباطن كما قال أبو الطيب المتنبي :

ماذا لَقِيتُ مِنَ الدُّنْيَا وأعْجَبُهـا إنّي بما أنَا باكٍ منْهُ مَحْسُـودُ

وقال لعبيد الله بن يحيى : مسّنا وأهلنا الضرّ ، وبضاعتنا الحمد والشكر ، وأنت لا يخيب عنده حرّ .

وسواء كان هذا الكلام منه من أساليب الاستجداء الذي اشتهر به ، أو من شدّة الحاجة كما يقول ، فقد عاش أبو العيناء في حياته كلّها سواء منها المدّة التي قضاها في البصرة ، أو المدّة التي عاشها في بغداد ، في ضنك من العيش وشدّة ، وتلك حياة كثير

من الأدباء والكتاب في عصره ، حتى كان الانتساب إلى الأدب طالع سوء على محترفيه ، اللّهمّ إلاّ نفراً قليلاً من الأدباء الذين أتاح لهم القدر أن يصلوا إلى مرتبة الوزارة أو القضاء ، وغفلت عنهم عين الزمان كما يقولون ، كالفضل بن سهل وأخيه الحسن ، والفضل بن الربيع ، وابن الزيات ، ويحيى بن أكثم ، وأحمد بن أبي دؤاد وغيرهم ، وما عدا هؤلاء فكانت حياتهم تتوقّف على العطايا التي ينفحهم بها أرباب المناصب في الدولة ؛ وكثيراً ما كانت تضيق أمامهم سبل العيش ، وتضطرّهم الفاقة إلى الاستكانة والذلّة ، ولا سيّما إذا راعينا رجلاً كأبي العيناء ، وهو مكفوف البصر ، رثينا لحاله التي كان فيها ، وانتحلنا له عذراً في استطالته بلسانه على الكبراء ، فإنّه لا يملك غيره ، وهو سيفه الوحيد الذي كان يناضل به في حياته عن عيش الكفاف الذي كان يبتغيه في دنياه كما يقول ذلك لعبيد الله بن سليمان .

٣) وثالث العوامل التي غيّرت مجرى حياته فَقْد بصره ، ولم يحدّثنا الرواة أحصل له ذلك الحادث في حياته البصْريّة أم في حياته البغداديّة ، وإنّي أرجح أنّ ذلك كان في حياته البصْريّة قبل أن ينتقل إلى بغداد ، فإنّ أحاديثه جميعها التي نقلت عنه ، وهو ببغداد تنبئنا أنّه كان أعمى يقوده غلامه .

ويظهر أنّ هذا الحادث قد أثّر فيه تأثيراً كبيراً فجعله ساخطاً على الحياة ، يتناول الناس بقوارص الكلم . قال له المتوكّل : لا

تكثر الوقيعة في الناس ، قال : إنّ لي في بصري لشغلاً عن الوقيعة فيهم ، قال ذلك أشدّ لحيفك في أهل العافية . فانظر إلى حيفه في أهل العافية الذي يذكره له المتوكّل ، أمَا كان هذا أثراً من آثار فَقْد بصره؟ وشكا مرّة إلى صديق له سوء الحال وفقد البصر ، فقال له : اشكر فإنّ الله قد رزقك الإسلام والعافية . قال : أجل ولكن بينهما جوعاً يقلق الكبد ، ويفقد الرشد .

لم يتّخذ أبو العيناء سخطه على الحياة مذهباً فلسفيًّا له كما اتخذه شاعر المعرّة من بعده ، ولم يؤدّ به هذا السخط إلى الزهد والتقشّف كما فعل ذلك أبو العلاء ، وإنّما كان سخطه مقصوراً على حزنه العميق الذي خالج فؤاده لفقد بصره .

صفاته وأدوار حياته

إذاً فقد اجتمعت عوامل ثلاثة أثرت في حياته : الوراثة والفقر وفقد البصر ، حتى جعلته سليط اللسان ، حاضر البديهة ، متوقّد الذكاء ؛ ولقد تزود في حياته البصْريّة من آثار الوسط الذي كان يعيش فيه بما يصلح لمجالس الملوك والأمراء ومنادمتهم بأحاديث وطرف ونوادر ، ثم رحل إلى بغداد بعد أن ضاقت به سبل العيش في البصرة ؛ ولقد ذمّها للمتوكّل حينما سأله عنها فقال : من أين أنت؟ قال : من البصرة . قال له : فما تقول فيها؟ قال : ماؤها أجاج ، وحرّها عذاب ، وتطيب في الوقت الذي تطيب فيه جهنم .

تزوّد بتلك الرواية الواسعة واشتهر مع هذا بالجواب المسكت ، والمراسلات العجيبة ، والجواب السريع ، والطبع الفكه ، والحجة الداحضة ، والبديهة المتوقّدة . فكانت تلك المظاهر معينة له على الحياة التي أقدم عليها ببغداد . فمن ذلك أنّ بعض الرؤساء قال له : يا أبا العيناء ، لو متّ لرقص الناس طرباً وسروراً ! فقال بديهةً :

أَرَدْتَ مَذَمَّتي فأَجَدْتَ مَدْحي بحَمْد الله ذَلكَ لا بحَمْدك
فَلاَ تَكُ واثقاً أبَداً بعَمْد فَقَدْ يأتي القَضَاءُ بغَيْر عَمدَك

ثم قال : أجل . الناس قد ذهبوا فلو رآني الموتى لطربوا لدخول مثلي عليهم ، وحلول عقلي لديهم ، ووصول فضلي إليهم ، فما زال الموتى يغبطونكم ويرحمونني بكم . وخاصم أبو العيناء يوماً علويًّا ، فقال له العلويّ : تخاصمني وأنت تقول كلّ يوم : اللّهمّ صلّ على محمد وآل محمد ! قال لكنّي أقول الطيّبين الطاهرين ولستَ منهم . ووقف عليه يوماً رجل من العامة فلما أحسّ به قال من هذا؟ قال رجل من بني آدم ، فقال مرحباً بك ! أطال الله بقاءك ، ما كنت أظنّ هذا النسل إلاّ قد انقطع . ولقيه بعض أصحابه في السحر فجعل يتعجّب من بكوره ، فقال له : أراك تشركني في الفعل وتفردني في التعجّب ! وقال له المتوكّل : إبراهيم بن نوح النصراني واجد عليك . فقال ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتّبع ملّتهم﴾ . قال : إنّ جماعة من الكتاب يلومونك . فقال :

إذا رَضِيَتْ عنّي كـرامُ عَشيرَتي   فلا زالَ غضبــانـاً علـيَّ لئامُهـا

وغير هذه الأحاديث كثير تستطيع أن تقرأها في كتب الأدب . وتلك البديهة الوقادة والأجوبة المسكتة هي التي جعلت الحصري صاحب زهر الآداب يقول : كان أبو العيناء أحذّ الناس خاطراً وأحضرهم نادرة ، وأسرعهم جواباً ، وأبلغهم خطاباً . ولقد كان أبو العيناء يجالس في حياته البغداديّة الخلفاء والكبراء فيطرفهم بأحاديثه وفكاهاته ، فكان سلوة لهم في مجالسهم ، وزينة في محاضرهم على ما فيه من حدّة اللسان .

انتقل أبو العيناء إذاً من البصرة إلى بغداد بعد أن تمّت له الثقافة التي أرادها ، والبلاغة العكاظيّة التي امتاز بها ، وتلك حال كان يشترك معه فيها كثير من أدباء عصره ، إذ كانت بغداد مركز الخلافة الإسلاميّة يرحل إليها الأدباء والعلماء ، ويبتغون فيها صلات الملوك والأمراء ، وقد يصل بعضهم إلى أن يرتب له الخليفة من بيت المال رزقاً يجرى عليه . ويظهر أن أبا العيناء كان من أولئك النفر كما تدلّ عليه أحاديثه ، ولا سيّما إذا لاحظنا أنّه من موالي الخلفاء العباسيين ، فكان بلا ريب له دالة عليهم جعلته في مأمن من تلك الحزازات التي كانت في صدور كثير من الحاشية ، والتي سبّبها أبو العيناء ببذاءة لسانه ، وتطاوله على أعراض الناس .

يقول الرواة : إنّ أبا العيناء ولد في آخر المائة الثانية ، وتوفّي سنة ٢٨٢ أو سنة ٢٨٣ هـ ، فمن ثَمّ يكون قد أظلّته خلافة المأمون والمعتصم والواثق والمتوكّل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد وصدر من خلافة المعتضد بالله الّذي تولّى سنة ٢٧٩ ، وتوفّي سنة ٢٨٩ هـ . ولقد كانت الحياة البغداديّة في عصر أبي العيناء كلّها ترف ولذّة ، يسودها المجون والخلاعة ، ويروج فيها العبث واللهو ، وقد روى لنا المؤلّفون كثيراً من مجالس لهوهم ومنادمتهم على الشراب ، ومساجلات الشعراء في خلواتهم ، وأحاديث المجان في طربهم ، وإنّي أعتقد أنّ الخليفة الذي تمتع بملذّات الحياة ، وأنال نفسه ما تبتغيها حقًّا ، من خلفاء العباسيّين هو المتوكّل على الله ، فهو أوّل من أظهر من خلفاء بني العباس الانهماك على شهوته ، فأسرف في بناء القصور ، وعكف على الشراب ولم يبال باللوم(١) ، ولقد جنى ثمرة رفاهية الدولة ، وإن شئت فقل إنّ الدولة قد بلغت في أيامه ذروة العظمة ، وكان لا بدّ لها من بعده أن تضعف حتى تنمحي ، «ولكلّ شيء إذا ما تم نقصان» . ولقد حدّثنا التاريخ أنّه قتل في قصره ، وأنّ الأمور من بعده اضطربت اضطراباً شديداً بسبب المعول الهادم الذي أوجده المعتصم ، وهو الجنود الأتراك ، ولم

---

(١) نعتقد أن الأمين لم يتمتع حقًّا للخلاف الذي كان بينه وبين أخيه المأمون .

يظهر استبدادهم وشرّهم حتى بلغت الأمور غايتها ، ثم ظهر الفساد بعد عصر المتوكّل .

اتّصل أبو العيناء بالمتوكّل اتّصالاً شديداً ، وسنعلم إلى أيّ حد أثّر فيه هذا الاتّصال ، ولم يقتصر اتّصاله بالخلفاء على المتوكّل وإنّما اتّصل بغيره كما اتصل به ، ولكنّ المتوكّل هو الذي رفع له الحجاب ، وجعل يصغي لأحاديثه ، ولقد بهره منه تلك البديهة الحاضرة ، وذاك الذكاء الوقّاد ، حتى رأيناه يمزح معه في كثير من مجالسه ، ويرفع الكلفة بينه وبينه .

ويظهر من أقوال الرواة أن أبا العيناء حينما ارتحل إلى بغداد كان الخليفة المأمون على رأس الدولة ، فاتّصل به ، وعرف وزيره الحسن بن سهل ، وأخذ منهما الصلات والعطايا ، ولقد أثّر ذلك المعروف في نفسه حتى قال لـمّا بلغه موت الحسن بن سهل : والله لئن أتعب المادحين ، لقد أطال بكاء الباكين ، والله لقد أصيب بموته الأنام ، وخرست لفقده الأقلام . وخبر آخر قال أبو العيناء : حصلت لي ضيقة شديدة ، فدخلت يوماً على يحيى بن أكثم ، فقال : إنّ أمير المؤمنين المأمون جلس للمظالم وأخذ القصاص ، فهل لك في الحضور؟ قلت : نعم . ومضيت معه ، فلَمّا دخلنا أجلسه وأجلسني ، ثمّ قال : أبا العيناء بالألفة والمحبة ، ما الذي جاء بك في هذه الساعة؟ فأنشدته :

لَقَدْ رَجَوتُك دونَ النَّاس كُلِّهمُ ... وللرَّجاء حُقُـوقٌ كُلُّها تَجِـبُ

إنْ لم أكُن لي أسبابٌ أعيش بها ... ففي العُلاَ لكَ أخلاقٌ هيَ السَبَبُ

فقال لغلامه : انظر أيّ شيء في بيت مالنا دون مال المسلمين ، فقال : بقيّة من مال ، قال : فادفع له منها مائة ألف ، وابعث له بمثلها في كلّ شهر . فلمّا كان بعد أحد عشر شهراً مات المأمون ، فبكى عليه أبو العيناء حتى تقرّحت أجفانه ، فقال له بعض أولاده : يا أبتاه بعد ذهاب العين ماذا ينفع البكاء . فقال :

شيْئَان لَوْ بكَت الدّمَاءَ عَلَيْهمَا ... عَيْنَايَ حَتّى يُؤْذنَا بذَهَاب
لَمْ يَبْلُغا المعْشَارَ منْ حَقّيْهمَا ... فَقْدُ الشباب وَفُرْقَةُ الأحْبَابَ

لقد مات المأمون ؛ ولقد حزن أبو العيناء حقًّا عليه ، حتى بكى بكاء مرًّا ، وتقرّحت عيناه ؛ ويظهر من بكائه وحديثه عنه أنّه راعى حقّ النعمة ، وقام بإسداء الشكر لصاحبها ، حتى بكاه بعد وفاته ؛ وسواء أكانت خلّة الوفاء موجودة فيه ، وهو ما لا أظنّه ، أم كان بكاؤه هذا لمنفعة شخصيّة فاتته ، وخاف من انقطاع الرزق الذي أجراه عليه المأمون من بيت المال ، فإنّ همّ ضمان قوته كان يخالج فؤاده ، ويخشى من يأتي بعده .

ولقد تحقّقت مخاوفه ، فإنّ عهد المعتصم والواثق لم يظهر فيه شأن أبي العيناء كثيراً ، ويرجع هذا إلى الخصومة التي كانت قائمة بين الوزير في ذلك العهد : محمد بن عبد الملك الزيات ، وبين القاضي أحمد بن أبي دُؤاد ، تلك الخصومة التي اشتدّت إلى درجة كبيرة ، حتى جعلت ابن أبي دؤاد يأنف أن يقوم عند دخول

ابن الزيات ، وكان قد أوجب الخليفة الواثق أن ينهض قياماً له جميع الحاضرين في المجلس ، ولم يرخص في ذلك لأحد ، فاشتدّ الأمر على القاضي ، ولم يجد لمخالفة الواثق سبيلاً ، فالتجأ إلى حيلة لطيفة تخلّصه من ذلك الموقف الحرج ، فوكل بعض غلمانه بمراقبته ، وموافاته بخبر قدومه ، فاذا أقبل نهض يصلّي ، فقال ابن الزيات في ذلك :

صلَّى الضُّحَى لمّا استَفَادَ عَدَاوَتِي وَأرَاهُ يَنْسكُ بَعْدَهَا وَيَصُومُ
لاتَعْدِمَنَّ عَدَاوَةً مَوْسُومَةً تَرَكَتْكَ تَقْعُدُ تَارَةً وَتَقُومُ

ويرجع سبب هذه العداوة إلى المنافسة في الرياسة التي كانت بين هذين الرجلين الفذّين .

لم يقف أبو العيناء إزاء تلك العداوة موقف الحياد ، بل انضمّ إلى القاضي ابن أبي دؤاد ، فأبعده هذا إلى حدّ ما عن مجلس الخليفة المعتصم والواثق ووزيرهما ابن الزيات ؛ وقد انقسم الأدباء أيضاً إلى حزبين . ولقد سأل أبو العيناء الجاحظ مرّة أن يشفع لصاحب له عند ابن الزيات ، فكتب الجاحظ الكتاب ، وناوله الرجل ، فسار به إلى أبي العيناء ، وقال له : قد أسعف بالمراد ، قال : فهل قرأته؟ قال : لا . إنّه مختوم . قال : ويحك فضّه لا يكون صحيفة المتلمّس ؛ ففضّه فإذا فيه : موصل كتابي هذا سألني فيه أبو العيناء ، وقد عرفتَ سفهه وبذوء لسانه ، وما أراه لمعروفك أهلاً ، فإن أحسنتَ إليه فلا تحسبه عليّ يداً ، وإن لم

تحسن إليه لم أعده عليك ذنباً والسلام . فركب أبو العيناء إلى الجاحظ ، وقال له : قد قرأت كتابك يا أبا عثمان ، فخجل الجاحظ وقال : يا أبا العيناء هذه علامتي في من أعتني به ، قال : فإذا بلغك أنّ صاحبي قد شتمك فاعلم أنّها علامته في من شكر معروفه .

وصلت العداوة إذن بين الكاتبين القديرين الجاحظ وأبي العيناء ، وكان هذا أثراً لتشيّع الحاشية ، وانقسامها على نفسها كما سبق ؛ وها نحن أولاء نرى أبا العيناء يغشى مجلس القاضي ابن أبي دؤاد في تلك المدّة ، ويتودّد إليه ، ويروي عنه أحاديث كثيرة آثرنا أن نثبت منها شيئاً ؛ قال أبو العيناء للقاضي : إن قوماً من أهل البصرة قدموا إلى (سرّ مَن رأى) يداً عليّ ، قال : يد الله فوق أيديهم ، فقلت : إنّ لهم مكراً ، فقال : ولا يحيق المكر السيّيء إلا بأهله ، فقلت : إنهم كثير ، فقال : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ، فقلت : لله درّ القاضي ، فهو كما قالت الصموت الكلابيّة :

لله دَرُّكَ أي جُنَّة خائف ... وَمَتَاعُ دُنْيا أنتَ للحَدَثَان
مُتَخَمِّط يطأ الرِّجَالَ شَهَامَةً ... وطْء الفنيق مدارج القِرْدانَ
ويكبهم حتى تظلّ رؤوسهم ... مَشَجُوجَةً تَنْحَطّ للغربان
ويفرّج البابَ الشديدَ رتاجُهُ ... حتى يَصِيرَ كأنّهُ بابان

وقال أبو العيناء : كنا عند القاضي ابن أبي دؤاد في جماعة من

أهل العلم والأدب ، فوفد عليه رسول الحاجب أبي منصور يقرئه السلام ، ويبلغه ألاّ يقصد القاضي إلى الحاجب ، لأنّ ذلك يضرّ بسمعته عند الوزير ابن الزيّات ، فقال القاضي : أجيبوه عن رسالته ، فلم ندر ما نقول ، ونظر بعضنا إلى بعض ، فقال : أما عندكم جواب؟ قلنا : القاضي أعزه الله أعلم بجوابه منّا ، فقال للرسول : اقرأ عليه السلام ، وقل له ما أتيتك متكثراً بك من قلة ، ولا متعززاً بك من ذلة ، ولا طالباً منك رتبة ، ولا شاكياً إليك كربة ؛ ولكنّك رجل ساعدك زمان ، وحركك سلطان ، ولا علم يؤلف ، ولا أصل يعرف ، فإن جئتك فبسلطانك ، وإن تركتك فلنفسك . فعجبنا من جوابه .

على أنّه لا يغرّنا مجالسة أبي العيناء للقاضي ، فإنّه قد وقعت بين الرجلين خصومة ، فكان لا يرحمه فيها أبو العيناء ، ممّا يدلّنا على أنّه كان من الرجال النفعيّين الذين يؤثرون المنفعة الشخصيّة على تلك الصداقة التي لا تفيده شيئاً من المال الذي يحبّه ويفضله على كلّ عزيز وحميم . ولكن ينبغي ألاّ نفهم من هذا أنّ أبا العيناء انضمّ إلى حزب ابن الزيات . كلاً . بل أبغض الرجلين جميعاً ، وذمّهما معاً ، وهذا حديث طريف أتى به صاحب زهر الأداب وقد آثرت أن آتي بجزء صالح منه حتى يكون معيناً لنا على الوقوف على مقدار بلاغة الرجل وأسلوبه في الكتابة .

قال أبو العيناء : لما حبس الواثق إبراهيم بن رباح ، وكان له

صديقاً ، صنعت له هذا الخبر ، راجياً أن ينتهي إلى أمير المؤمنين فينتفع به ؛ ولقد سمعه الواثق فضحك واستظرفه ، وقال : ما صنع هذا كلّه إلاّ أبو العيناء بسبب إبراهيم بن رباح ، وأمر بتخليته . والخبر هو : قال : لقيت أعرابيًّا من بني كلاب ، فقلت له : ما عندك من خبر هذا العسكر؟ قال : قتل أرضاً عالمها ؛ قلت : فما عندك من خبر الخليفة؟ قال : بخبخ في عزّه ، وضرب بجرانه ، وأخذ الدرهم من مصره ، وأرعف قلم كلّ كاتب بجنايته ؛ قلت : فما عندك في أحمد بن أبي دؤاد؟ قال : عضلة من العضل لا تطاق ، وجندلة لا ترام ، ينتحي بالمدى لتنحره فيجوز ؛ وتنصب له الحبائل ، حتى تقول الآن ، ثم يطفر طفرة الذئب ، ويخرج خروج الضبّ ؛ والخليفة يحنو عليه ، والقرآن آخذ بضبعيه . قلت : فما عندك من خبر ابن الزيات؟ قال ذلك وسع الورى شرّه ، وبطن بالأمور خيره ، فله في كلّ يوم صريع ، لا يظهر فيه أثر ناب ولا مخلب ، إلاّ بتسديد الرأي . قلت : فما عندك من خبر إبراهيم بن رباح؟ قال : ذاك رجل أوبقه كرمه ، وإن بقره للكرام قدح ، فلا عزّ بهجائه ؛ ومعه دعاء لا يخذله ، وربّ لا يسلمه ، وخليفة لا يظلمه . ثم يأخذ في الحديث عن شأن أناس كثيرين من رجال الدولة مثل الخصيب والحسن بن وهب وأخيه سليمان ، وهذا لا يعنينا في شيء لأنّنا لا ندرس أولئك الرجال الآن ، ثم يقول قلت له : أين نزلت فأؤمّك؟ قال ما لي منزل تؤمّه ، أنا أستتر في الليل إذا عسعس ،

وأنتشر في الصبح إذا تنفّس .

ويلوح لي أنّ تلك الأحاديث هي التي فتحت باب المقامات ، وأوجدت الفكرة الرئيسيّة فيها ، حتى نسج على منوالها بديع الزمان الهمذاني والحريري فيما بعد .

قد عادى أبو العيناء ابن أبي دؤاد ، ولكنّه لم يمض في الخصومة إلى حدّ كبير ، بل حفظ له جميل كرمه وقضاء حوائجه التي كثيراً ما كان يضايقه بها إبقاء على ودّه ، وصداقته ما دامت تجرّ عليه المنفعة حيناً . قال له المتوكّل يوماً : من أسخى من رأيت؟ قال : ابن أبي دؤاد ، فقال المتوكّل : تأتي إلى رجل رفضته فتنسبه إلى السخاء ! قال : إنّ الصدق يا أمير المؤمنين ليس في موضع من المواضع أنفق منه في مجلسك ، وإن الناس يغلطون في من ينسبونه إلى الجود ، لأنّ سخاء البرامكة منسوب إلى الرشيد ، وسخاء الفضل والحسن ابني سهل منسوب إلى المأمون ؛ فإذا نسب الناس الفتح وعبيد الله ابني يحيى بن خاقان إلى السخاء ، فذلك سخاؤك يا أمير المؤمنين . قال : صدقت .

فمن هذا نعلم مبلغ تلك الخصومة ، وأنّها كانت طفيفة ، ويظهر أنّ سببها كان عدم إجابة طلب لأبي العيناء أو قبوله شفاعة ، أو نحو ذلك من الأشياء التي كان يتطاول بها أبو العيناء على الرؤساء .

دامت المنافسة على الرياسة بين ابن الزيات وابن أبي دؤاد مدّة خلافة المعتصم والواثق حتى تولّى المتوكّل ، وفي السنة الثانية من خلافته نكب ابن الزيات ، وأحرقه في التنور(١) ، وخلا الجوّ بهذا لحزب ابن أبي دؤاد ، ووجد أبو العيناء الميدان أمامه فسيحاً ، فاتّصل بالمتوكّل وحصلت له معه مجالس أدخل الرواة بعضها في بعض ؛ ويظهر أنّ أعداءه قد وشوا به إلى الخليفة كي يوقعوه فيما وقع فيه ابن الزيات ، ولكنّه بفصاحته وذلاقة لسانه نجا . قال له المتوكل : بلغني أنك رافضيّ ، فقال : يا أمير المؤمنين وكيف أكون رافضيًّا وبلدي البصرة ، ومنشئي في مسجد جامعها ، وأستاذي الأصمعي ، وليس يخلو القوم أن يكونوا أرادوا الدين أو الدنيا ، فإن كانوا أرادوا الدين فقد أجمع الناس على تقديم من أخّروا ، وتأخير من قدّموا ، وإن كانوا أرادوا الدنيا ، فأنت وآباؤك أمراء المؤمنين ، لا دين إلاّ بك ، ولا دنيا إلاّ معك . وكانت تلك الوشاية كفيلة بأن تقضي عليه ، لأنّ المتوكّل كان يكره الرافضة ، ولكنّه تخلّص بذكائه .

ودخل أبو العيناء على المتوكل في قصره المعروف بالجعفريّ فقال له الخليفة : ما تقول في دارنا هذه؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، إنّ الناس بنوا الدور في الدنيا ، وأنت بنيت الدنيا في دارك .

---

(١) ويقول أستاذنا الإسكندري إنّه أدخله في تنّور مملوء بالمسامير وعذّبه فيه حتى مات صبراً . وهذه الطريقة هي التي كان يغتال بها الناس .

فاستحسن كلامه وقال : كيف شرابك للخمر؟ قال :أعجز عن قليله ، وأفتضح عند كثيره ؛ فقال له الخليفة : دع عنك هذا : ونادمنا ، فقال : لا أطيق ذلك ، وما أقول هذا جهلاً بما لي في هذا المجلس من الشرف ، ولكنّي رجل مكفوف البصر ، وكلّ من في مجلسك يخدمك ، وأنا محتاج أن أخدم ، ولست آمن من أن تنظر إليّ بعين راض ، وقلبك عليّ غضبان ، أو بعين غضبان وقلبك راض ، ومتى لم أميز بين هذين هلكت ، فأختار العافية على التعرّض للبلاء . قال : صدقت ، ولكن تلزمنا ، قال لزوم الفرض الواجب اللازم . فوصلني بعشرة آلاف درهم .

تلك كانت منزلة أبي العيناء عند المتوكّل يتمنّى أن ينادمه ، ويودّ ولو بجدع الأنف أن يتاح له حضور شخص فكه المحاضرة ، عذب الحديث كأبي العيناء في مجلس شرابه ، وقد كان المتوكّل يمزح معه كثيراً قال له مرّة : هل رأيت طالبيًّا حسن الوجه قطّ . قال : يا أمير المؤمنين ، أرأيت أحداً قطّ سأل ضريراً عن هذا ! قال : لم تكن ضريراً فيما تقدّم ، وإنّما سألتك عمّا سلف ؛ قال : نعم رأيت منهم ببغداد منذ ثلاثين سنة فتى ما رأيت أجمل منه . قال المتوكّل : تجده كان مؤاجَراً ، وتجدك كنت قوّاداً عليه ، فقال أبو العيناء : أوفرغت لهذا يا أمير المؤمنين ، أتراني أدع موالي على كثرتهم ، وأقود على الغرباء ، قال : اسكت يا مأبون ! قال مولى القوم منهم ، قال المتوكّل : أردت أن أشتفي منهم ، فاشتفى لهم منّي .

على أن عدم قبول أبي العيناء لمنادمة المتوكّل قد عصمه إلى حدّ ما من القصف والمجون اللذين كانا يجريان في قصر الخلافة، وإن كنت أعتقد أنّ شخصاً متوقّد الذكاء كأبي العيناء قد حمى نفسه من معاقرة الخمور، خوفاً من أن تضيّع عقله، وتغلب على لبّه، فيخرج عن صوابه، وهو ما كان يأباه على نفسه، فجوابه إذاً للمتوكّل حين سأله عن الشراب بقوله: أعجز عن قليله، وأفتضح عند كثيره لم يكن للتخلّص من منادمته، وإنّما كان صادقاً في هذا القول، وإن كان قد ذهب إلى الاستمتاع بملذّات الحياة من غير طريق الشراب، كلّما حان له ذلك، ولكنّ ذهابي إلى هذا الرأي ليس معناه تنزيه أبي العيناء وجعله في عصمة الأنبياء والصدّيقين، بل ربّما يكون قد شرب ونادم وأفرط في الشراب والقصف، وأخذ بحظّه من اللهو والمجون مع غير المتوكّل، لكنّني لا أميل إلى اتّهامه بأنّه كان من المعاقرين للشراب والمدمنين على قرع الكؤوس، كالمتوكّل أو وزيره الفتح بن خاقان مثلاً، كلا، وإنّما كان لا يميل إلى تعاطي الكثير من الخمور، لأنّها تجرّه إلى الافتضاح كما يقول.

قلت إنّ أبا العيناء اتّسع أمامه الميدان أيام المتوكّل، وظهر نجمه، وسعدت أيامه، فلم يقتصر الأمر على اتّصاله بالخليفة، بل اتّصل بوزيره الفتح وأخيه عبيد الله ابني يحيى بن خاقان، واستفاد من عطاياهم وسخائهم مالاً كثيراً؛ ولقد مدح عبيد الله لدى المتوكّل حينما سأله عنه فقال: «نعم العبد لله ولك، مقسّم

بين طاعته وخدمتك ، يؤثر رضاك على كلّ فائدة ، وما عادَلَ بصلاح ملكك كلّ لذّة» . وله كتاب طويل كتبه إلى عبيد الله يستوهبه دابة يركب عليها حينما وهب له ابنه محمد دابة ، فزعم أنّها غير فاره . وهذا الكتاب تستطيع أن تجده في كتب الأدب ، وهو يدل على التلطف في المسألة ، والاحتيال على هؤلاء الرؤساء بتلك الأحاديث الحلوة الفكهة ، ممّا حبّب أبا العيناء إليهم ، وجعلهم يغضون عن بذاءته ويلبسونه على علاته .

انقضت دولة المتوكّل ووزيريه الفتح وأخيه عبيد الله ، واضطربت الأمور من بعده ، حتى استتبّ الأمن ، ورجعت المياه إلى مجراها ، وتولّى الوزارة عبيد الله بن سليمان بن وهب في خلافة (المنتصر ، المستعين ، المعتزّ ، المهتدي) فاتّصل به أبو العيناء وحضر مجالسه ؛ وطالما حدثنا الرواة عن كثير من حوادثه معه . دخل عليه ذات يوم فقال : اقرب منّي يا أبا عبد الله . فقال : أعزّ الله الوزير ! تقريب الأولياء ، وحرمان الأعداء . قال : تقريبك غنْم وحرمانك ظلم ، وأنا ناظر في أمرك نظراً يصلح من شأنك إن شاء الله . وقال له يوماً : اعذرني فإنّي مشغول . فقال : إذا فرغت من شغلك لم نحتج إليك ، وأنشده :

فَلاَ تَعْتَذِر بالشُّغْلِ عنّا فإنّما ... تُناط بك الآمالُ ما اتَّصَلَ الشّغْلُ

ثم قال يا سيدي ، قد عذرتك ، فإنّه لا يصلح لشكرك من لا يصلح لعذرك . ودخل عليه يوماً فقال : من أين يا أبا عبد الله؟

قال من مطارح الجفاء . وأقبل يوماً إليه ، فشكا سوء حاله ، فقال له : أليس قد كتبنا إلى إبراهيم بن المدبّر في أمرك؟ فقال : كتبت إلى رجل قد قصَّر من همته طول الفقر ، وذلّ الأسر ، ومعاناة محن الدهر ، فأخفق سعيي ، وخابت طلبتي . فقال : أنت اخترته قال : وما عليَّ أعزّ الله الوزير في ذلك ، وقد اختار موسى قومه سبعين رجلاً ، فما كان فيهم رجل رشيد ، واختار النبيّ صلى الله عليه وسلّم عبد الله بن سعد بن أبي سرح كاتباً فرجع إلى المشركين مرتدًّا ، واختار علي بن أبي طالب رضي الله عنه أبا موسى الأشعري حكماً له فحكم عليه؟ ! وإنّما قال أبو العيناء : ذلّ الأسر لأنّ إبراهيم المذكور كان قد أسره صاحب الزنج بالبصرة وسجنه فنقّب السجن وهرب .

ولـمّا نكب الخليفة المعتمد على الله عبيد الله بن سليمان ، وولّى الوزارة صاعد بن مخلد حصل خصام بين هذا الوزير وبين أبي الصقر إسماعيل بن بلبل الكاتب ، فانضمّ أبو العيناء إلى حزب أبي الصقر ولكن ذلك الموقف الذي وقفه من صاعد لم يمنعه من أخذ عطاياه واستجدائه ، وحضور مجالسه . وقد عادى أبو العيناء رجلاً يقال له أبو العباس بن ثوابة لمعاداته لأبي الصقر ، حتى إنّ الرجلين اجتمعا في مجلس صاعد يوماً ، وكان ابن ثوابة قد سبّ أبا الصقر قبل ذلك بيوم ، فقال ابن ثوابة لأبي العيناء : أما تعرفني؟ فقال : بلى أعرفك : ضيق العطن ، كثير الوسن ، خاراً على الذقن ، وقد بلغني تعدّيك على أبي الصقر ، وإنّما حلم

عنك لأنه لم يجد لك عزاً فيذلّه ، ولا علوّاً فيضعه ، ولا مجداً فيهدمه ، فعاف لحمك أن يأكله وينهكه ، ودمك أن يسفكه . فقال ابن ثوابة : ما تسابّ إنسانان إلاّ غلب ألأمهما . فقال : لهذا غلبت أمس أبا الصقر !

ولقد كان من جزاء أبي العيناء من أبي الصقر على وقوفه منه هذا الموقف في سبيله أنّه عندما تولّى الوزارة خيّره فيما يحبّه حتى يفعله به ، فقال أريد أن تكتب إلى أحمد بن محمد الطائيّ تعرّفه مكاني ، وتلزمه قضاء حقّ مثلي من خدمة ، فكتب إليه كتاباً بخطه فوصله إلى الطائي ، فسبّب له في مدّة شهر واحد مقدار ألف دينار ، وعشرة أجمل ، فانصرف بجميع ما يحبّه . وله أحاديث كثيرة ، ومجالس طريفة مع الوزير أبي الصقر . ويظهر أن هذا آخر وزير اتّصل به أبو العيناء من وزراء الدولة العباسيّة ، فإنّه لم يعش بعد ما نكب الموفق أبا الصقر إلا قليلاً ، وتوفّي سنة ٢٨٢ أو سنة ٢٨٣ هـ .

مهاترته مع كاتبين في عصره

على أنّنا نرى من الواجب علينا أن نأتي بشيء ممّا جرى بين أبي العيناء وبين كاتبين قديرين في عصره ، هما محمد بن مكرّم ، وأبي علي بن جعفر الضرير ؛ أما ابن مكرّم فكانت له معه مداعبات ، وكان يهاتره كثيراً ؛ كتب إليه ابن مكرّم يوماً : قد

ابتعت لك غلاماً من بني ناشرثم من بني ناعظ ثم من بني نهد . فكتب إليه : فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . وولد لأبي العيناء ولد ، فأتى ابن مكرّم فسلّم عليه ، ووضع حجراً بين يديه وانصرف ، فأحسّ به فقال : من وضع هذا؟ فقيل ابن مكرّم ، فقال : لعنه الله إنّما عرض بقول النبيّ صلى الله عليه وسلم : الولد للفراش وللعاهر الحجر . وقال لابن مكرّم وقد قدم من سفر : ما لك لم تهد إلينا هديّة؟ قال : لم آت بشيء ، وإنّما قدمت في خف ، قال : لو قدمت في خف لخفّت روحك . وقال له ابن مكرَم يوماً يعرّض به : كم عدد المكذبين بالبصرة؟ فقال : مثل عدد البغّائين ببغداد !

وأمّا أخباره مع أبي علي الضرير فكثيرة ، وكم أتمنّى أن يتيح لي الزمن فرصة الموازنة بين هذين الرجلين ، فإنّ بينهما شبهاً قويًّا ، وقد وُجدا في عصر واحد ، وكانا في البلاغة نسيج وحدهما ، ولكن كانت بينهما منافسة قويّة أدّت إلى أن تجري بينهما مساجلات ومفاخرات كثيرة ، حتى إنّ فتى من أبناء الكتاب في بعض الدواوين تعرّض لأبي العيناء ، وكان فيه جرأة فقال : كل الناس لك يا أبا العيناء زوجة ، وأنت زوجة أبي علي البصير . فقال له أبو العيناء : قد ملكنا عصمتك بيقين فحواك ، ثم ننظر في شكوك دعواك ، وقد طلقت الناس كلّهم سواك ، ذلك أدنى ألاّ تعول ، وفيك ما يروي الفحول ، ويتجاوز السول . ففضحه بهذا الكلام ولم يجبه .

وهذا الحديث يدلّ على أنّه قد كان بين الرجلين تصادم ؛ وإن شئت فسمّه مشاكسة وجدلاً عنيفاً وصراعاً قويًّا بالألسن ، وأنّه كثيراً ما يكون الغلب في جانب أبي علي الضرير .

أدب أبي العيناء

ونقصد بهذا الأدب الشعر والنثر ؛ أما الشعر فلا نستطيع أن نعدّ أبا العيناء شاعراً مكثراً من فحول الشعراء ، لأنّنا لم نجد له في كتب الأدب والتراجم التي بأيدينا شعراً كثيراً ؛ إنّما الذي نقدر أن نحكم له به أنّه كان من شعراء الكتاب أضراب أحمد بن يوسف الكاتب والوزير للمأمون فيما بعد ، وقد تقدم له بضعة أبيات مدمجة في أحاديثه تؤيّدنا في حكمنا هذا .

وأمّا النثر فقد كان أبو العيناء سبّاقاً فيه ؛ وتمتاز كتابته بأنّها تارة تكون مفرغة في قالب فكاهيّ مضحك ، تقرؤها فلا تكاد تملك نفسك من الضحك ، ولكنّه إذا أفرغها في قالب الجدّ أتى بالفقر القصيرة حيناً والطويلة حيناً آخر ؛ وكثيراً ما تكون مرسلة ، وقد يقيّدها بالسجع . فأسلوبه من السهل الممتنع كما يقولون ، ويكفيه في منزلته البلاغة . تعجّب المتوكّل منه ، إذ سأله : أكان أبوك في البلاغة مثلك؟ فأجابه بقوله : لو رأى أمير المؤمنين أبي لرأى عبداً له لا يرضاني عبداً له . ونرى كاتباً معاصراً له يشهد له شهادة قيّمة وهو محمد بن مكرم الكاتب قال : من زعم أن عبد

الحميد أكتب من أبي العيناء إذا أحسّ بكرم أو شرع في طمع فقد ظلم . ونحن وإن كنا نعتقد أنّ في كلامه غلوًّا مراعاة للصداقة المحكمة الأواصر بينهما ، إلاّ أنّ الحال التي وصف فيها أبا العيناء بالإجادة خليقة بتقدير النقد الأدبي لها . فإنّنا نرى الرجل يأتي برسائل ممتعة حقًّا نعجب كيف صدرت عنه ، ولكنّنا لو علمنا أنّ الدافع له إحساسه بالكرم ، أو شروعه في الطمع كما يقول ابن مكرم لا نستغرب هذا .

وإنّي أريد أن أؤيّد كلامي بنماذج من رسائله ، ولقد كنت في غنى عن هذا لما تقدّم من أحاديثه وكتاباته ، ولكنّي لم أرَ بدًّا من الإتيان بنبذ يسيرة منها ، فمن رسائله الفكاهيّة : ما كتبه إلى عبيد الله بن يحيى بن خاقان حينما أهدى إليه ابنه محمد دابة زعم أنّها غير فاره :

أعلم الوزير أعزّه الله أنّ أبا علي محمدا أراد أن يبرّني فعقّني ، وأن يُركبني فأرجلني : أمر لي بدابة تقف للنبرة ، وتعثر بالبعرة ، كالقضيب اليابس عَجَفاً ، وكالعاشق المجهود دنفاً ، قد أذكرت الرواة عذرة العذري ، والمجنون العامري ، يساعد أعلاه لأسفله ، مقرون بسعاله ، فلو أمسك لترجّيت ، أو أفرد لتعزّيت ، ولكنّه يجمعهما في الطريق المعمور ، والمجلس المشهور ، كأنّه خطيب مرشد ، أو شاعر منشد ، تضحك من فعله النسوان ، وتتناغى من أجله الصبيان ، فمن صائح يصيح داوه بالطباشير ، ومن قائل

يقول نقّله من الشعير ، قد حفظ الأشعار ، وروى الأخبار ، ولحق العلماء في الأمصار ، فلو أعين بنطق ، لروى بحقّ وصدق ، عن جابر الجعفيّ ، وعامر الشعبيّ ، وإنّما أتيت به من كاتبه الأعور ، الذي إذا اختار لنفسه أطاب وأكثر ، وإذا اختار لغيره أخبث وأنزر . فإن رأى الوزير أن يبدلني ويريحني بمركوب يضحكني كما ضحك منّي ، يمحو بحسنه وفراهته ، ما سطّره العيب بقبحه ودمامته ، ولست أردّ كرامه ، سرجه ولجامه ، لأنّ الوزير أكرم من أن يسلب ما يُهديه ، أو ينقض ما يمضيه .

فوجّه إليه الوزير برذوناً من براذينه بسرجه ولجامه ؛ ثم اجتمع مع محمد بن عبيد الله عند أبيه ، فقال الوزير شكوت دابة محمد ، وقد أخبرني الآن أنّه يشتريه منك بمائة دينار ، وما هذا ثمنه لا يشتكي . فقال أعز الله الوزير لو لم أكذب مستزيداً لم أنصرف مستفيداً ، وإنّي وإياه لكما قالت امرأة العزيز ﴿الآن حصحص الحقّ ، أنا راودته عن نفسه ، وإنّه لمن الصادقين﴾ فضحك الوزير وقال : حجتك الداحضة بملاحتك وظرفك أبلغ من حجة غيرك البالغة .

ومن رسائله الجديّة ما كتبه إلى عبيد الله بن سليمان بن وهب : أنا أعزك الله وولدي وعيالي زرع من زرعك ، إن سقيته راع وزكا ، وإن جفوته ذبل وذوى ، وقد مسّني منك جفاء بعد برّ ، وإغفال بعد تعاهد ، حتّى تكلم عدوّ ، وشمت حاسد ،

ولعبت بي ظنون رجال كنت بهم لاعباً ، ولهم مجرّساً . ولله درّ أبي الأسود في قوله :

لاتهنّي بعد إكْرَامِك لِي ... فَشَدِيدٌ عَادَةٌ مُنْتَزَعَهْ

وتلك الرسالة كانت كافية في أن تطلق يد عبيد الله بالعطاء فوقّع في رقعته : أنا أسعدك الله على الحال التي عهدت ، وميلي إليك كما علمت ، وليس من أنسأناه أهملناه ، ولا من أخّرناه تركناه ، وقد وقّعت لك برزق شهرين ، لتعرفني مبلغ استحقاقك ، لأطلق لك باقي أرزاقك ، إن شاء الله والسلام .

وكتب إلى الوزير أبي الصقر يشكره : أنا أعزّك الله طليقك من الفقر ، ونقيذك من البؤس ، أخذت بيدي عند عثرة الدهر ، وكبوة الكبر ، وعلى أيّة حال حين فقدت الأولياء والأشكال ، والإخوان والأمثال الذين يفهمون في غير تعب ، وهم الناس الذين كانوا غياثاً للناس ، فحللت عقدة الخلّة ، ورددت إليّ بعد النفور النعمة ، فأحسن الله جزاك ، وأعظم حماك ، وقدمني أمامك ، وأعاذني من فقدك ، فقد أنفقت عليّ ممّا ملكك الله ، وأنفقت من الشكر ما يسّره الله لي ، والله عز وجل يقول لينفق ذو سعة من سعته ، فالحمد لله الذي جعل لك اليد العالية ، والرتبة الشريفة ، لا أزال الله عن هذه الأمة ما بسط فيها من عدلك ، وبث فيها من رفدك والسلام .

الباب الثاني

طرائفه ونوادره

«كان من أفصح الناس لساناً ، وأحفظهم ، وكان من ظرائف العالم ، وفيه من اللسن وسرعة الجواب والذكاء ما لم يكن في أحد من نظرائه ، وله أخبار حِسان وأشعار مِلاح» .

ابن العماد الحنبليّ

أنت اخترته [1]

شكا أبو العيناء إلى عبيد الله بن سليمان بن وهب الوزير سوء الحال فقال له :

- أليسَ قد كتبنا إلى إبراهيم بن المدبّر في أمرك؟

قال :

- نعم ، قد كتبت إلى رجل قد قصّر من همّته طول الفقر ، وذلّ الأسر ، ومعاناة الدهر ، فأخفقَ سَعْيي ، وخابت طلبتي .

فقال عبيد الله :

- أنت اخترته .

فقال :

- وما عليّ أيّها الوزير في ذلك ، وقد اختار موسى قومه

---

(١) وفيات الأعيان ٤/ ٣٤٤ ؛ وحدائق الأزاهر ص ٦٢ ؛ وزهر الآداب ص ٢٨٦ ؛ ومعجم الأدباء ١٨/ ٢٨٧ .

سبعين رجلاً فما كان فيهم رشيد ، واختار النبيّ ﷺ عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح كاتباً ، فرجع إلى المشركين مرتد ، واختار علي ابن أبي طالب (رض) أبا موسى الأشعري حكماً له فحكم عليه .

لم أكن معه فأخبرك (٢)

سأل أبو الصقر إسماعيل بن بلبل الوزير أبا العيناء :

- ما الذي أخّرك عنّا يا أبا العيناء؟

فقال :

- سُرِق حماري .

فقال :

- وكيف سُرِق؟

قال :

- لم أكن مع اللص فأخبرك !

قال :

- فهلاّ أتيتنا على غيره؟

قال :

- قعد بي عن الشراء قلّة يساري ، وكرهت ذلّة المكاري

(٢) وفيات الأعيان ٤/ ٣٤٤ ؛ وحدائق الأزاهر ص ٩٤ ؛ وزهر الآداب ص ٢٨٢ ؛ وشذرات الذهب ١/ ١٨١ ؛ ومعجم الأدباء ١٨/ ٢٩٤ .

(المؤجّر) ومنّة العواري (جمع عارية) .

. . . ولستَ منهم (٣)

خاصم أبو العيناء علويًّا . فقال العلوي :

تخاصمني وأنت تقول كلّ يوم : اللّهمّ صلِّ على محمّد ، وعلى آل محمّد .

فقال :

- بلى ، ولكنّي أقول : الطيّبين الطاهرين ، ولستَ منهم .

أطال الله بقاءك (٤)

وقف على أبي العيناء رجل من العامة ، فلمّا أحسّ به قال :

- مَنْ هذا؟

قال :

- رجل من بني آدم .

فقال أبو العيناء :

---

(٣) وفيات الأعيان ٤/ ٣٤٤ ؛ ومعجم الأدباء ١٨/ ٢٩٥ .

(٤) وفيات الأعيان ٤/ ٣٤٤ ؛ وحدائق الأزاهر ص ١٤٣ ، وزهر الآداب ص ٢٨٥ ؛ وشذرات الذهب ١/ ١٨١ ؛ ومعجم الأدباء ١٨/ ٢٩٦ .

- مرحباً بك ، أطال الله بقاءك ، ما كنت أظنّ هذا النسل إلاّ قد انقطع .

لكلّ جديد لذّة (٥)

صار أبو العيناء يوماً إلى باب صاعد بن مخلّد ، فاستأذن عليه ، فقيل :

- هو مشغول بالصلاة .

فقال أبو العيناء :

- لكلّ جديد لذّة . (وكان صاعد قبل الوزارة نصرانيًّا) .

دَعَوْتُك رحمة فتركتني رحمة (٦)

دعا أبو العيناء سائلاً ليعشّيه ، فلم يدع شيئاً إلاّ أكله ، فقال أبو العيناء :

- يا هذا ، دعوتك رحمةً فتركتني رحمةً .

---

(٥) وفيات الأعيان ٤/ ٣٤٤ ؛ وحدائق الأزاهر ص ٩٤ ؛ وزهر الآداب ص ٢٨٥ ؛ وشذرات الذهب ١/ ١٨١ ؛ ومعجم الأدباء ١٨/ ٢٩٣ .

(٦) وفيات الأعيان ٤/ ٣٤٤ ؛ وزهر الآداب ص ٢٨٩ ؛ وشذرات الذهب ١/ ١٨١ ؛ ومعجم الأدباء ١٨/ ٢٩٦ .

مالي لا أسمع الصراخ عليه(٧)

مرّ أبو العيناء بباب عبد الله بن منصور ، وهو مريض وقد صلح ، فقال لغلامه :

- كيف خبره؟

فقال :

- كما تحبّ .

فقال :

- مالي لا أسمع الصراخ عليه؟ !

متى أصلح للمنادمة (٨)

لقي أبا العيناء بعض أصحابه في السحر ،فجعل يتعجّب من بكوره ، فقال أبو العيناء :

- أراك تشركني في الفعل ، وتفردني بالتعجّب .

وذكر له أنّ المتوكّل قال :

- لولا أنّه ضرير لنادمناه .

فقال :

---

(٧) وفيات الأعيان ٤/ ٣٤٤ ؛ ومعجم الأدباء ١٨/ ٢٩٣ .

(٨) وفيات الأعيان ٤/ ٣٤٤ ، ٣٤٥ ؛ وحدائق الأزاهر ص ٥٤ ، ٩٢ ؛ وزهر الآداب ص ٢٨٥ ؛ ومعجم الأدباء ١٨/ ٢٨٧ ، ٢٩٦ .

- إنْ أعفاني من رؤية الأهلّة ، وقراءة نقوش الفصوص فأنا أصلح للمنادمة .

ما دام المسيء مسيئا[٩]

قيل لأبي العيناء :

- إلى متى تمدح وتهجو؟

فقال :

- ما دام المحسن محسناً ، والمسيء مسيئًا ، بل أعوذ بالله أن أكون كالعقرب التي تلسع النبيّ والذميّ .

ذهب بصره فعظمت حيلته [١٠]

كان بين أبي العيناء وبين ابن مكرم مداعبات ، فسمع ابن مكرم رجلاً يقول :

- مَنْ ذهب بصره قلّت حيلته .

فقال :

- ما أغفلك عن أبي العيناء ! ذهب بصره فعظمت حيلته .

---

(٩) وفيات الأعيان ٤/ ٣٤٥ ؛ والمستطرف ص ٣٨١ ؛ ومعجم الأدباء ١٨/ ٢٩٤ .

(١٠) وفيات الأعيان ٤/ ٣٤٥ ؛ وشذرات الذهب ١/ ١٨١ .

وقد ألمّ أبو علي البصير إلى هذا المعنى يشير به إلى أبي العيناء ، فقال :

قــد كنتُ خفت يــــدَ الزّمـا ... ن عليــك أنْ ذَهَــبَ البَصَــرْ
لــم أدْرِ أنّــك بالعمــــى ... تغْنــى ويفتــقرُ البَشَــرْ

. . . ومن لست سائله [11]

سمع ابن مكرم أبا العيناء يقول في بعض دعائه :

- يا ربّ سائلك .

فقال :

- يا ابن الفاعلة ، ومَنْ لست سائله؟

مثل عدد البغائين ببغداد [12]

سأل ابن مكرم أبا العيناء معرّضاً به :

- كم عدد المكدّين بالبصرة؟

فقال له :

- مثل عدد البغّائين ببغداد- (إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ولا

(١١) وفيات الأعيان ٤/ ٣٤٥ ؛ ومعجم الأدباء ١٨/ ٢٩٢ .

(١٢) وفيات الأعيان ٤/ ٣٤٥ ؛ وشذرات الذهب ١/ ١٨١ ؛ ومعجم الأدباء ١٨/ ٢٩٢ .

تُكْرِهُوا فتياتِكم على البغاءِ إنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً﴾ (النور : ٣٣) .

. . . وبها غَلَبْتَ (١٣)

دخل أبو العيناء على ابن ثوابة عقيب كلام جرى بينه وبين أبي الصقر أربى ابن ثوابة عليه فيه ، فقال له :

- بلغني ما جرى بينك وبين أبي الصقر ، وما منعه من استقصاء الجواب إلاّ أنّه لم يجد عزًّا فيضعه ، ولا مجداً فينقصه ، وبعد فإنّه عاف لحمك أن يأكله ، وسهك دمك (كره رائحته) أن يسفك .

فقال ابن ثوابة :

- وما أنت والدخول بيني وبين هؤلاء يا مكدي؟

فقال :

- لا تنكر على ابن ثمانين قد ذهب بصره وجفاه سلطانه أن يعوّل على إخوانه ، فيأخذ من أموالهم ، ولكن أشدّ من هذا من يستنزل الماء من أصلاب الرجال ، فيستفرغه من جوفه ، فيقطع أنسابهم ، ويعظم أوزارهم .

فقال ابن ثوابة :

- ما تسابّ اثنان إلاّ غلب ألأمهما .

---

(١٣) وفيات الأعيان ٤/ ٣٤٥ ، ٣٤٦ ؛ وزهر الآداب ص ٧٨٨ ؛ ومعجم الأدباء ١٨/ ٢٩٤ .

فقال أبو العيناء :

- وبها غلبت أبا الصقر بالأمس .

فأسكته .

* * *

تطيب في الوقت الذي تطيب فيه جهنّم (١٤)

دخل أبو العيناء على المتوكّل في قصره المعروف بـ«الجعفري» فقال له المتوكّل :

- ما تقول في دارنا هذه؟

فقال :

- إنّ الناس بنوا الدور في الدنيا ، وأنت بنيت الدنيا في دارك .

فاستحسن كلامه ، ثم قال له :

- كيف شربك للخمر؟

قال :

- أعجزُ عن قليله ، وأَفْتَضِحُ عند كثيره .

فقال له :

(١٤) وفيات الأعيان ٤/ ٣٤٦ ؛ وأمالي المرتضى ١/ ٢٩٩ ؛ واللطائف والظرائف ص ٧٩ ، ٨٠ ؛ وزهر الآداب ص ٢٧٩ ، ٢٨٠ ؛ ومعجم الأدباء ١٨/ ٢٨٨ .

- دع هذا عنك ونادمنا .

فقال :

- أنا رجل مكفوف ،وكلّ مَنْ في مجلسك يخدمك ، وأنا أحتاج إلى من يخدمني ، ولست آمن من أن تنظر إليّ بعين راض ، وقلبك عليّ غضبان ، أو بعين غضبان ، وقلبك راض ، ومتى لم أميّز بين هذين هلكت ، فأختار العافية على التعرّض للبلاء .

فقال :

- بلغنا عنك بذاء في لسانك .

فقال :

- يا أمير المؤمنين ، قد مدح الله تعالى وذمّ ، فقال : ﴿نعْمَ العبد إنَّه أوّاب﴾ (ص : ٤٤) ، وقال عزّ وجلّ : ﴿همّاز مشّاء بنميم . منّاع للخيرِ معتدٍ أثيم﴾ (القلم : ١١و١٢) ، وقال الشاعر :

إذا أنا بالمعروف لم أثنِ صادقاً
ولم أشتُم النّكْسَ اللئيمَ المذمّما
ففيم عَرَفْتُ الخَيْرَ والشرَّ باسْمه
وشَقَّ ليَ اللهُ المسامعَ والفما

(النكس : الرجل الضعيف والدنيء الذي لا خير فيه) .

قال :

- فمن أين أنت؟

قال :

- من البصرة .

قال :

- فما تقول فيها؟

قال :

- ماؤها أجاج (مالح) وحرّها عذاب، وتطيب في الوقت الذي تطيب فيه جهنّم .

أحسنت للّه أبوك (١٥)

حدّث أبو العيناء قال :

- كنت يوماً جالساً عند أبي الحكم إذ أتاه رجل فقال له :

«وعدتني وعداً، فإن رأيت أن تنجزه» .

فقال :

- ما أذكره!

فقال :

- إن لم تذكره فلأنّ من تعده مثلي كثير، وأنا لا أنساه، لأنّ من أسأله مثلك قليل .

---

(١٥) وفيات الأعيان ٤/ ٣٤٧ ؛ وشذرات الذهب ١/ ١٨١ ، ١٨٢ .

فقال :

- أحسنت للّه أبوك .

وقضى حاجته .

ابنٌ مثلي (١٦)

قال أبو العيناء :

- ما أخجلني أحد مثل ما أخجلني ابنٌ ظريف لعبد الرحمن ابن خاقان . كنت يوماً عندهم ، فقلت لأبيه :

- وددت أنّ لي ابناً مثل ابنك !

فقال الابن :

- هذا أمر هيّن ، ابعث لي بأمّ عيالك ، فإنّها تأتيك بابن مثلي !

ما حرمته من رؤيتك (١٧)

قال المتوكّل لأبي العيناء :

- ما أشدّ ما عليك في ذهاب بصرك ؟

قال :

---

(١٦) حدائق الأزاهر ص ٥٦ ؛ ومعجم الأدباء ١٨/ ٢٨٧ .

(١٧) حدائق الأزاهر ص ٦٣ ؛ وزهر الآداب ص ٧٩٣ .

- ما حرمته ، يا أمير المؤمنين ، من رؤيتك ، مع إجماع الناس على جمالك .

في سراويلك (١٨)

مرّت امرأة بأبي العيناء ، وهو جالس على باب داره ، فقالت :

- أين درب الحلاوة؟

فقال :

- في سراويلك !

صحفة أم قبر (١٩)

مرّ أبو العيناء بموسى بن المتوكّل ، فقال له :

- انزل على ما حضر .

فقدّم له صحفة بلحم وخبز . فأدخل أبو العيناء يده فقلبها ،فما وقعت يده إلاّ على عظم ، فقال :

- يا سيدي !هذه صحفة أم قبر؟

فضحك موسى ، وأمر بإحضار شيء آخر .

---

(١٨) حدائق الأزاهر ص ٩٤ .

(١٩) حدائق الأزاهر ص ٢٢٢ ؛ وزهر الآداب ص ٢٨٩ ؛ ومعجم الأدباء ١٨/٢٩٧ .

هذا بابي وباب الوالدة[٢٠]

دخل أبو العيناء على إبراهيم بن المدبّر وعنده الفضل بن يزيد ، وهو يلقي على ابنه مسائل في النحو ، فقال :

- في أيّ باب هذا؟

فقال :

- في باب الفاعل والمفعول به !

فقال :

- هذا بابي وباب الوالدة ، حفظها الله !

فغضب الفضل وانصرف .

إذا رضيت عنّي كرام عشيرتي[٢١]

قيل لأبي العيناء :

- إنّ جماعة الكتّاب يلومونك .

فأنشد :

إذا رَضِيَتْ عَنّي كرام عشيرتي
فلا زال غضباناً عليّ كلابها

---

(٢٠) حدائق الأزاهر ص ٢٣٠ ؛ وزهر الآداب ٢٨٣ .

(٢١) حدائق الأزاهر ص ١١٦ ؛ وزهر الآداب ص ٢٨٥ ؛ والمستطرف ص ٣٨٩ .

ارفقوا به [٢٢]

قال أبو العيناء :

- كنّا على مائدة بعض الرؤساء ، فقدّم إلينا جدي مشويّ ؛ فلمّا ضرب الناس فيه بأيديهم ، قال صاحب البيت :

- ما أنتم مسلمون !؟ ارفقوا به ، فإنّه بهيمة !

خذ منه ما شئت [٢٣]

دخل أبو العيناء على عبيد الله ، وبين يديه شطرنج يلعب به مع بعض أولاده ، فقال له عبيد الله :

- مع أيّ الحزبين تريد أن تكون !

قال :

- معك .

فلم يكن بأسرع من أن قال :

- قد غُلبنا ، ولزمك من الغمار عشرون رطلاً من الثلج .

قال :

- أحضره أيّها الأمير ، ولكن تأذن لي أن أمضي إلى داري أوصيهم بما أحتاج إليه حتى يدرك الطعام وأوافيك بالثلج .

---

(٢٢) حدائق الأزاهر ص ١٥٢ .

(٢٣) حدائق الأزاهر ص ١٨٥ ؛ ومعجم الأدباء ١٨/ ٢٩١ .

فقال :

- امضِ ، ولا تتأخّر .

فركب حماره ومضى لأبي العباس بن ثوابة ، فقال له :

- الأمير يدعوك الساعة !

فلبس ابن ثوابة ثيابه ، وركب دابّته ، وصار معه أبو العيناء ، فما شعر عبيد الله إلاّ بأبي العيناء مع ابن ثوابة قد وافى ، فسرّ بذلك ؛ فقال أبو العيناء :

- كلّفونا أربعين رطلاً من الثلج ، وقد جئتك بثلج فذاب كلّه ، فخذ منه ما شئت !

فضحك عبيد الله حتى استلقى .

ما أعجب هذا الأمر ! (٢٤)

قال أبو العيناء :

مررت يوماً في درب بسرّ من رأى ، فقال لي غلام :

- يا مولاي ، في الدرب حَمَلٌ سمين ، والدرب خال . فأمرته أن يأخذه وغطّيته بطيلساني ، وصرت به إلى منزلي ؛ فلمّا كان من الغد جاءتني رقعة من بعض رؤساء ذلك الدرب مكتوب فيها : «جُعلتُ فداك ، ضاع لنا بالأمس حَمَلٌ ، فأخبرني صبيان

---

(٢٤) معجم الأدباء ١٨/ ٢٩٥ ، ٢٩٦ .

دربنا أنّك أنَت أخذته ،فأمر بردّه متفضّلاً» .

فكتب إليه :

«يا سبحان الله ! ما أعجب هذا الأمر ! مشايخ دربنا يزعمون أنّك بغّاء وأكذّبهم أنا ولا أصدّقهم ، وتصدّق أنت صبيان دربك أنّي أخذت الحَمَل ؟

قال : فسكت ولم يعاودني .

إثمهما أكبر من نفعهما (٢٥)

قيل لأبي العيناء :

- ما تقول في ابن مكرم والعباس بن رستم؟

قال :

- هما الخمر والميسر ، إثمهما أكبر من نفعهما !

السَّماع غير النظر (٢٦)

قال أبو العيناء :

- ذُكرت لبعض القيان فأحبّتني على السماع ، فلمّا رأتني استقبحتني فقلت :

---

(٢٥) حدائق الأزاهر ص ٩٤ ؛ ومعجم الأدباء ١٨/ ٢٩٢ .

(٢٦) حدائق الأزاهر ص ٩٤ ؛ وزهر الآداب ص ١٥٨ .

«وشاطرة لمّا رأتني تنكّرت وقالتْ :قبيح أحولُ ماله جسمُ
فإنْ تُنكري منّي احْوِلالاً فإنّني أديبٌ أريبٌ لا عَييٌّ ولا فَدْمُ

فقالت :

- إنّي لم أردك أن أوليك على ديوان العراق !

شهادتي عليهم بلوى (٢٧)

كان في بني الجرّاح فتى خليع ماجن ، فأراد العبث بأبي العيناء ، فنهاه نصّاحه ، فأبى . فقالوا له :

- شأنك !

فقال له :

- يا أبا العيناء ، متى أسلمت؟ !

قال :

- حين كفر أهلك وأبوك الذين لم يؤدّبوك !

فقال له الفتى :

- إذاً فقد علمت أنّك ما أسلمت !

فقال أبو العيناء :

- شهادتك لأهلك دعوى ، وشهادتي عليهم بلوى ، وستعلم

(٢٧) حدائق الأزاهر ص ١٠٢ .

أيّ السلطانين أقوى ، وأيّ الشيطانين أغوى ، وسيعلم أهلك ما جنى عليهم جهلك .

كيف عقل الوالدة؟ (٢٨)

قال ابن مكرم :

- ما أحد أعقل من مغنّية تأكل وتشرب وتتلذّذ وتأخذ دراهم !

فقال له أبو العيناء :

- فكيف عقل الوالدة حفظها الله؟ !

أيّ غلام (٢٩)

قال ابن مكرم لأبي العيناء مازحاً :

- الساعة ، والله آمر غلامي أن يصفعك !

فقال له أبو العيناء :

- أيّ غلام ، الذي يركبك إذا نزلت ، أم الذي يخلفك في العيال إذا ركبت؟

(٢٨) حدائق الأزاهر ص ١٠٢ .

(٢٩) حدائق الأزاهر ص ١٠٢ .

لذلك كنتَ سائلاً (٣٠)

قال أبو علي البصري لأبي العيناء :

- إنّي ولدت قبل طلوع الشمس بيسير !

قال :

- فلذلك كنت سائلاً لأنّه وقت انتشار الناس !

حاجتي إذن صيفيّة (٣١)

سأل أبو العيناء أحمد بن صالح حاجة فوعده بها ، فلمّا طالبه بالاقتضاء ، قال أحمد :

- ما ترى هذا الطين والمطر؟

قال أبو العيناء :

- فحاجتي إذن صيفيّة .

فضحك وقضى حاجته .

قُلْ للحمار (٣٢)

زاحم أبا العيناء رجل بالجسر راكب على حمار ، فضرب بيده

(٣٠) حدائق الأزاهر ص ١٠٥ ؛ وأمالي المرتضى ١/ ٣٠٤ .

(٣١) حدائق الأزاهر ص ١٠٧ .

(٣٢) حدائق الأزاهر ص ٢٢٢ ؛ وزهر الآداب ص ٢٨٢ .

على الحمار ، وقال :

- يا رجل ، قل للحمار الذي عليك يقول : «الطريق» .

الولد للفراش وللعاهر الحجر (٣٣)

ولد لأبي العيناء ولد ، فأتى ابن مكرم ، فسلّم عليه ، ووضع حجراً بين يديه وانصرف . فقال :

- من وضع هذا الحجر؟

قيل له :

- ابن مكرم .

قال :

- لعنه الله ! إنّما عرض لقول النبيّ ﷺ : «الولد للفراش وللعاهر الحجر» .

* * *

صوت الحمير (٣٤)

سمع أبو العيناء مغنّياً غير محسن ، فقال :

---

(٣٣) حدائق الأزاهر ص ٢٢٢ ؛ وطبقات الشعراء ص ٤١٥ ؛ وزهر الآداب ص ٢٨٨ .

(٣٤) حدائق الأزاهر ص ٢٤١ .

– صدق الله العظيم ﴿إنّ أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾ (لقمان : ١٩) .

الكريم إذا حاسب تفضّل (٣٥)

قال أبو العيناء لأعرابيّ :

– إن الله محاسبك !

فقال الأعرابي :

– سررتني ، إنّ الكريم إذا حاسب تفضّل !

برّدها الله بشعرك (٣٦)

اجتمع أبو هفان وأبو العيناء على مائدة ، فقدّمت إليهم فالوذجة ، فقال أبو هفان لأبي العيناء :

– هذه والله أشدّ حرا من مكانك في لَظَى .

فقال أبو العيناء :

– برّدها الله بشعرك .

(٣٥) حدائق الازاهر ص ٢٤٦ .

(٣٦) طبقات الشعراء ص ٤٠٨ .

فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين (٣٧)

كتب ابن مكرم إلى أبي العيناء :

- قد ابتعت لك غلاماً من بني ناشر، ثم بني ناعظ ، ثم من بني نهد فكتب إليه أبو العيناء :

- فَأْتنا بما تَعدُنا إنْ كنت من الصادقين .

احفظْ مكاني (٣٨)

عن أبي العيناء قال :

- كان المدني في الصفّ من وراء الإمام ، فذكر الإمام شيئاً ، فقطع الصلاة ، وقدّم المدنيّ ليؤمّهم ، فوقف طويلاً ، فلمّا أعيا الناس سبّحوا له (أي قالوا سبحان الله) وهو لا يتحرّك ، فنحّوه وقدّموا غيره ، فعاتبوه ، فقال :

- ظننته يقول لي :احفظ مكاني حتى أجيء .

ولدت أيّام البراغيث (٣٩)

قال أبو العيناء :

---

(٣٧) زهر الآداب ص ٢٨٨ .

(٣٨) أخبار الحمقى والمغفلين ص ١٤١ .

(٣٩) أخبار الحمقى والمغفلين ص ٢٢١ .

- كنت بحمص فمات لجارٍ لي بنت ، فقيل له : كم لها؟
قال :
- ما أدري ، ولكنّها ولدت أيام البراغيث .

لا أكثر الله في المسلمين مثله (٤٠)

قال أبو العيناء :
- رأيت جارية مع النخاس ، وهي تحلف أن لا ترجع لمولاها .
فسألتها عن ذلك ، فقالت :
- يا سيّدي ، إنّه يواقعني من قيام ، ويصلي من قعود ، ويشتمني بإعراب ، ويلحن في القرآن ، ويصوم الخميس والاثنين ، ويفطر رمضان ، ويصلّي الضحى ، ويترك الفرض .
فقلت :
- لا أكثر الله في المسلمين مثله .

جوع يقلقل الكبد (٤١)

شكا أبو العيناء إلى صديق له سوء الحال ، فقال :
- اشكر الله ، فإنّ الله قد رزقك الإسلام والعافية .

---

(٤٠) المستطرف ص ٢٥٥ .

(٤١) المستطرف ص ٢٩٠ .

فقال :

- أجل ، ولكن بينهما جوع يقلقل الكبد .

يد الله فوق أيديهم (٤٢)

قال الزمخشري لأبي العيناء :

- قد تضافروا عليّ وصاروا يداً واحدة .

فقال :

- ﴿يد الله فوق أيديهم﴾(الفتح : ١٠) .

قلت :

- فإنّ لهم مكراً .

قال :

- ﴿ولا يحيق المكر السيّىء إلاّ بأهله﴾(فاطر : ٤٣) .

قلت :

- هم كثير .

قال :

- ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾(البقرة : ٢٤٩) .

---

(٤٢) وفيات الأعيان ص ٣٤٥ ؛ وثمار القلوب ص ٣٣ .

ليس دونهما حجاب (٤٣)

بات أبو العيناء عند ابن مكرّم في بيت ، فتأذّى بفسائه ، فتحوّل إلى الصُّفّة (موضع غير البيت ذو ثلاثة حيطان يستتر به من البرد) فلحقه النتن ، فصعد غرفة فوجد تلك الرائحة ، فقال له :

- يا ابن الفاعلة ! ما أشبه فساءك بدعوة المظلوم ، والريح العقيم ، ليس دونهما حجاب .

أيّ إيمان ترون معي (٤٤)

قيل لأبي العيناء :

- ويحك ما أوقحك !

فقال :

- أما علمت أنّ للحياة شرائط ليست معي واحدة منهنّ !

قيل :

- فَصِفْهُنَّ .

قال :

- أوّلهنّ في العينين ، ولست أبصر ، والثانية اجتناب الكذب ،

---

(٤٣) ثمار القلوب ص ٦٧٤ ؛ ومعجم الأدباء ١٨/ ٢٩٢ .

(٤٤) ثمار القلوب ص ٦٩٣ .

وأنا من اليمامة رهط مسيلمة الكذاب ، والثالثة أنّ النبيّ ﷺ قال : «الحياء من الإيمان» فأيّ إيمان ترون معي؟

طُبِخَتْ بالشطرنج [(٤٥)]

غدّى أبا العيناء ابنُ مكرّم يوماً ، فقدّم إليه عِراقاً (عظم أُكل لحمه) فلمّا جسّه ، قال :

- قِدْرُكُمْ هذه طُبِخَتْ بالشطرنج؟

اعترتها حمّى الرّبع [(٤٦)]

أكل أبو العيناء مرّة عند أبي مكرّم ، فَسُقِيَ على المائدة ثلاث شربات باردة ، ثمّ استقى فَسُقِيَ شربة حارّة فقال :

- لعلّ مُزَمَّلَتكم (ما يبرد فيها الماء) تعتريها حمّى الربع (الحمى التي تأخذ المريض يوماً وتتركه يومين ، ثم تأتيه في اليوم الرابع) .

مَحَتْ حلاوة الإيمان [(٤٧)]

دخل أبو العيناء مرّة على المتوكّل ، فقُدِّمَ إليه طعام ، فغمس

---

(٤٥) معجم الأدباء ١٨/ ٢٩٧ .

(٤٦) معجم الأدباء ١٨/ ٢٩٧ .

(٤٧) معجم الأدباء ١٨/ ٢٩٧ .

أبو العيناء لقمته في خل كان حاضراً ، وأكلها ، فتأذى بالحموضة ، وفطن المتوكّل له ، فجعل يضحك ، فقال :

– لا تلمني يا أمير المؤمنين ، فقد مَحَت حلاوة الإيمان من قلبي .

لِمَ لا يكذب عليك الورّاقون؟ (٤٨)

حضر أبو العيناء يوماً مجلس بعض الوزراء ، فتفاوضوا حديث البرامكة وكرمهم ، وما كانوا عليه من الجود ، فقال الوزير لأبي العيناء – وكان قد بالغ في وصفهم ، وما كانوا عليه من البذل والإفضال – :

– قد أكثرت من ذكرهم ووصفك إيّاهم ، وإنّما هذا تصنيف الورّاقين ، وكذب المؤلّفين .

فقال له أبو العيناء :

– فَلِمَ لا يكذب الورّاقون عليك أيّها الوزير؟

فسكت الوزير ، وعجب الحاضرون من إقدامه عليه .

---

(٤٨) وفيات الأعيان ٤/ ٣٤٣ .

فهرس المحتويات

القسم الثاني
أبو العيناء وطرائفه ونوادره

هَـذا الكِتَابْ

هذا أحد أجزاء «سلسلة ظرفاء العرب» المتعة بطرائفها المضحكة ونوادرها المسلّية، والغنيّة بأخبار الشعراء والناثرين وأمراء الطرفة والبيان. وهذه الطرائف والأخبار المستقاة من تراثنا العربي تمدّنا بمخزون أدبي وتاريخي ضخم، وتعزّز فينا حبّ العربية وأهلها.

تستهلّ المؤلفة القسم الأول من هذا الجزء بالترجمة لحياة قراقوش، وتبيّن أصل تسميته وشهرته، وتحدّد معالم شخصيته بين التاريخ والأسطورة، كما تعرّف بكتاب «الفاشوش في أحكام قراقوش» ونسبته وتسميته ومخطوطاته، ثم تنتقل إلى ذكر مجموعة من أحكامه الطريفة ونوادره في ولايته وتدبير شؤون حكمه. أما القسم الثاني فيتضمّن ترجمة لأبي العيناء وطَرَفاً من أخباره وأدوار حياته، وعرضاً لمعالم أدبه ومهاتراته، إلى جانب عدد كبير من نوادره وطرائفه.

ولـمّا كان الهدف من هذه السلسلة هو الإمتاع والتثقيف على حدٍّ سواء، فإن المؤلفة تحرص فيها على استبعاد كل ما يخدش الحياء أو يُسيء إلى الأفراد والجماعات، كما تحرص على الأمانة في نقل النوادر والطرائف من مظانّها الأساسية.



تصميم الغلاف : محاسن حمية